الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
المركز الجامعي العربي بن مهيدي – أم البواقي

معهد الآداب واللغات　　قسم اللغة العربية وآدابها

شعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام

دراســـة نفـسيـــة

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب العربي القديم

إعداد الطالبة:　　إشراف الأستاذ:

فوزية شنا شر　　الدكتور الربعي بن سلامة

لـجنـــة المنـاقشـــة:

أ.د/ العلمي لراوي	المركز الجامعي.أم البواقي	رئيسا
أ.د/ الربعي بن سلامة	جامعة منتوري قسنطينة	مشرفا ومقررا
أ.د/عبد القادر دامخي	جامعة باتـــنـــة	عضوا مناقشا
أ.د/عبد الحميد بن صخرية	جامعة باتـــنـــة	عضوا مناقشا

الموسم الجامعي:2006/ 2007م

موضوع هذه المذكرة هو دراسة نفسية لشعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام، ولهذا الموضوع أهمية كبيرة في التعريف بالشاعر المسلم المجاهد، الذي مزج بين السنان واللسان، وكذا بالأشعار التي انسابت على ألسنة الفاتحين، وتعدّ هذه الفترة وهي صدر الإسلام من أخصب الفترات في نشر الإسلام والدفاع عنه وتوسيع رقعته، فلا غرو أن يصاحبها قلب مفعم بالإيمان، ولسان نديٌّ، وشاعرية مؤثّرة.

ولشعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام، دور فعّال في التأريخ لهذه الحقبة، والتعريف بذاكرة المجاهدين الفاتحين، وبمعاركهم وحروبهم وبتجاربهم ومواقفهم، كما عرّفنا الشاعر الفاتح المهاجر بالطبيعة الجديدة بكل ما تحمله من مظاهر غريبة عنه لم يألفها، وبأنواع الأسلحة والعتاد، وبكل مظاهر الحياة الأخرى التي كان يعيشها غيره من الشعوب المجاورة.

وما دفعني إلى اختيار هذا الموضوع، هو حبّي الكبير للإسلام، وشغفي بالدراسات الإسلامية واهتمامي بتاريخها المجيد، وخاصة هذه المرحلة وهي صدر الإسلام التي شهدت بطولات عظيمة، وتضحيات جسيمة، ونفوسا تواقة للاستشهاد في سبيل الله، فرغبتي كانت ملحة في الغوص داخل هذا الشاعر الفاتح، وتتبع تفاعله وتأثره واندفاع نفسه لنقل وجدانياته ومشاعره وأحاسيسه في كل ظروف حياته، وهو في ساحة الوغى، بين السيف والقوس، والترس والرمح، وهو مُخْتَلٍ بنفسه يداعب عواطفه وأشجانه، وهو يحنّ إلى أهله وديارة، تحت قيد الأسر أو أغلال الغربة، وهو يبكي ويندب من فقدهم من الأصحاب والإخوة والخلان، فجبهات حياته كثيرة ومتباينة، ومواقفه قاسية ومثيرة.

أما عن أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها، وأنا أواجه عباب هذا الموضوع، فهي كثيرة ومتنوعة، منها كتب التاريخ الإسلامي، كتب التراجم والسير،وكتب الغزوات والحروب، وقد كدت أفقد الأمل في بداية البحث لعدم قدرتي على إرساء جهودي حول مصادر ومراجع معينة، فكنت أخبط عشوائيا فكلما وجدت كتابا

يعالج مواقف تاريخية إسلامية، رحت أتصفحه وأبحث فيه عن ضالتي، لكن سرعان ما أعود خائبة، إلى أن وقعت يدي على كتاب معجم البلدان لياقوت الحموي،وكتاب فتوح البلدان للبلاذري وكتاب السيرة النبوية لابن هشام، وطبقات فحول الشعراء لابن سلام الجمحي، وكتاب الفتوح لابن آعثم الكوفي، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الاصفهاني، وكتاب جمهرة أشعار العرب لأبي زيد محمد بن أبي الخطاب القرشي، فكانت هذه الذخائر النفيسة مفاتيح لفك معضلاتي، وتمهيدطريقي،وإزاحة ستائر الغموض واللبس عن مخيلتي، ولو أن ما وجدته فيها من أشعار الفاتحين كان متناثرا هنا وهناك عبر صفحاتها، مع ضعف التوثيق إلا أنني استطعت أن أجمع مادة أدبية كانت قاعدة انطلاقي.

ومن المراجع التي استفدت منها تاريخيا وأدبيا كتاب "القادسية" و "الطريق إلى المدائن" و"سقوط المدائن" لأحمد عادل كمال، أما أجود كتاب فهو "شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام" للنعمان عبد المتعال القاضي، وهو كتاب كشف فيه الكاتب عن جوانب شعر الفتوح في صدر الإسلام وطوابعه وخصائصه الفنية كشفا تاما دقيقا، فدراسته مفصلّة وقويمة،فنوّر دربي و فتح بصيرتي على مواضيع وأفكار ومواقف، فهو كتاب يستحقّ كل العناية والاهتمام. وكذ لك كتاب " دور الشعر في معركة الدعوة الاسلامية أيام الرسول" لعبد الرحمان خليل ابراهيم، وكتاب "المجتمعات الإسلامية في القرن الأول، نشأتها، مقوماتها وتطورها الغوي والأدبي" لصاحبه شكري فيصل، وهما كتابان لهما فائدة كبيرة في التعريف بالمجتمعات الإسلامية في صدر الإسلام، ودور الشعر في معارك الدعوة الإسلامية وحركاتها التوسعية. فقد استفدت منهما كثيرا لما يحملانه بين صفحاتهما من معلومات وأخبار ودراسات مهمة وجدية، وذات فائدة لكل باحث في هذا الاتجاه الإسلامي، لان الكتاب الاول جمع فيه صاحبه أشعارا مناسبة لفصوله وأبوابه بكل موضوعية وثبات، مركزا على الناحية الفكرية مرة والفنية مرة أخرى، متخدا معارك الرسول صلى الله عليه وسلم محورا لدراسته.وأما الكتاب الثاني فبين فيه الدكتور شكري فيصل مقام الأدب والشعر

خاصة في الدعوة الإسلامية، وموقف الإسلام منه ثم عرّج على شعر الفتوح ومدى الاستجابة النفسية للجهاد، ليختم كتابه بمظاهر التجديد في اللغة والاسلوب والوزن.

هذه مجمل المصادر والمراجع الأساسية والقاعدية لبحثي هذا.

وقد اتبعت في دراستي لما جادت به قريحة الشعراء المسلمين الفاتحين في صدر الإسلام **المنهج النفسي**، فاتجهت إلى داخل هذا الشاعر الذي اتخذ من أحلامه وميوله اللاشعورية مادة لإبداعاته، فحلّلت عاطفته المضطربة من الهجر والترحال، وظروف القتال، والغزوات والحروب، "فالدراسات النفسية تعيننا على تحليل العاطفة في صدقها وزيغها، واضطرابها وهدوئها" [1].وتساعدنا على تفسير الكيفيات التي استخدم بها الشعراء وسائلهم الفنية للتعبير عن حالاتهم النفسية المتغيرة، " فالمنهج النفسي في نقد الأدب يبحث عن الحالة النفسية التي كان الأديب تحت سلطانها وهو يصوغ إنتاجه، أي تنظر في المؤثرات الخارجية التي لها وقع على الأديب، ومن ثمّ على انتاجه."[2] " فالأدب يعكس شخصية صاحبه ويعرّفنا بملامحها، وما تكنّه بداخلها فأصحاب المدرسة النفسية يعتبرون العمل الأدبي تعبيرا مباشرا عن شخصية الشاعر وهم لذلك يتخدون من العمل الأدبي وسيلة تساعدهم في الكشف عن هذه الشخصية، وايضاح معالمها المختلفة و زواياها الدفينة وهو منهج علمي سليم."[3] "فالعلاقة بين الأدب والنفس لا تحتاج إلى إثبات، لأنه ليس هناك من ينكرها، وكل ما تدعو الحاجة إليه هو بيان هذه العلاقة ذاتها وشرح عناصرها. على أي نحو يرتبط الأدب بالنفس؟ أيستمد الأدب من النفس أم تستمد النفس من الأدب؟ أم أن العلاقة بينهما علاقة تبادل من التأثير والتأثر؟ إن النفس تصنع الأدب، وكذلك يصنع الأدب النفس. النفس تجمع أطراف الحياة لكي تصنع منها الأدب، والأدب يرتاد حقائق الحياة لكي يضيئ جوانب

1 فهمي ماهر حسن . قضايا في الأدب والنقد. ص 28.
2 طبانة، بدوي. دراسات في نقد الأدب العربي. ص25
3 غطاشة، داود، راضي حسين . قضايا النقد العربي قديمه وحديثه. ص96..

النفس، والنفس التي تتلقى الحياة لتصنع الأدب هي النفس التي تتلقى الادب لتصنع الحياة. إنها دائرة لا تفترق طرفاها إلا لكي يلتقيا، وهما حين يلتقيان يضعان حول الحياة إطارا فيصنعان لها بذلك معنى، والإنسان لا يعرف نفسه إلا حين يعرف للحياة معنى".[1] فعلم النفس بما اشتمل عليه من مدارس وآراء وأفكار ساهم في إثراء الثقافة الإنسانية" فالإتجاه النفسي في النقد جزء من الثقافة الإنسانية وهو ككل الظواهر التي تفسر حياة الإنسان يمتاح منه كل ظامئ للمعرفة بأشكالها المختلفة امتياحا قد ينمّيها ويطورها، وقد تتخد شكلا آخر لتصبح به حلقة أخرى في ميراث الإنسانية الثقافي وهكذا"[2].واستنادا إلى هذه التفسيرات للمنهج النفسي حلّلت نفسيا بعض شعراء الفتوح، كما استعنت بالمنهج الإجتماعي في ربط الشاعر ببيئته ومواقفه ،وتأثره بالبيئة الجديدة التي حلّ بها بعد الفتوح، والتي تركت بصماتها واضحة في أشعاره. وكذلك بالمنهج الفني في تحليل الأشعار التي جادت بها قريحة الشاعر الفاتح من حيث الألفاظ والأسلوب والصور والأخيلة والأوزان والقوافي لكنني أبقيت على الخيط النفسي الذي ارتكزت عليه في هذه الدراسة، والعلاقة بين كل هذه المناهج هي علاقة تكاملية للعمل الأدبي.

وقد سعيت من خلال هذا البحث إلى تسليط مزيد من الضوء على هذا الموضوع الشائق، الذي كلما تغلغل الباحث فيه وجد متعة وغبطة، وهو يقلّب صفحات التاريخ الإسلامي، يوم كان المجاهد المسلم لا يتوانى ولا يتراجع أمام أعتى قوة، وإن كانت الفرس والروم، وما زادني شغفا بهذا الموضوع هو محاولة الغوص في أعماق هذا الشاعر، لمعرفة الدوافع الكامنة والظاهرة لهذا التعبير الشعوري، فعشت معه الأحداث الحزينة والمفرحة، وكان هدفي أن أتوصل إلى ما لهذه الفتوحات الإسلامية من أثر في إذكاء جذوة الشعر وفي إنطاق الشعراء، وكذلك في التعريف

[1] – اسماعيل، عز الدين. التفسير النفسي للأدب. ص13

[2] أبو رضا، سعد،أبو رضا. نحو منهج نفسي في نقد الشعر.ص37.

ببعض الشعراء المسلمين المغمورين. أما عن الهيكل التنظيمي للبحث فهو يحتوي على مقدمة، مدخل،أربعة فصول، وخاتمة.

المدخل تضمن لمحة عن الحياة السياسية في صدر الإسلام، بدأته من ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم وبداية غزواته، وتداول الخلفاء الراشدين على الحكم بدءا بأبي بكر الصديق ثم عمر بن الخطاب ، ثم علي بن أبي طالب. وكان لكل خليفة مغازيه وتوسعاته، كما تضمن المدخل أيضا لمحة عن الحياة الإجتماعية في صدر الإسلام حيث ترسّخت القيم والمبادئ الإسلامية السمحة، وانتشرت الخلال الكريمة، وعرف الناس حقوقهم وواجباتهم،كما ظهر المنافقون، الذين شكلّوا جبهة خطيرة على الإسلام بمعيّة الكفار واليهود والملحدين، فحاربهم وحارب كلّ الترّهات والأباطيل التي كانت سائدة.

في الفصل الأول ذكرت لمحة عن الحياة الأدبية في صدر الإسلام وخلال الفتوحات الإسلامية؛ شعرا ونثرا ودورهما في شحذ القرائح واستنهاض الهمم، وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم من الشعر، ثم عرّفت بشعر الفتوح لأجمل بعدها وأعرف بالأغراض الشعرية القديمة والجديدة التي ذاع صيتها في صدر الإسلام وخلال الفتوحات الإسلامية، كما تضمن الفصل الأول لمحة تاريخية عن الفتوحات الإسلامية وأهميتها في تحرير الشعوب المستعبدة في الامبراطوريات القديمة وتخليصها من الهوان وذل الاستعباد وآلام الظلم، وفي نشر الإسلام وتعاليمه في البلاد المفتوحة لتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، فذكرت أسباب هذه الفتوحات وحلّلت العوامل التي ساعدت عليها، لأنهي هذا الفصل بمفهوم الجهاد في الإسلام مشفعة إياه بآيات قرآنية تحث عليه، ولمحة تاريخية عن الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام، فذكرت فتوح الشام والعراق ومصر والمغرب العربي – وحتى لا يأخذ البحث طابعا تاريخيا أكاديميا– ركزت على المحطات الكبرى فيها.

وفي الفصل الثاني بيّنت أثر الفتوحات الإسلامية في الشعر العربي، فهي التي أذكت جذوة الشعر فمثلما تهافت وتنافس الشعراء المجاهدون على طلب الشهادة في سبيل الله للظفر بالجنة، راح آخرون من بين مشجع ومفتخر وراثٍ، فهذا يحضّ على الجهاد، وذاك يعتدّ بالنصر وآخر يرثي النفوس والأشلاء، كما أنطقت الفتوحات الإسلامية الآباء الذين اغترب عنهم أبناؤهم، ففاضت مدامعهم، وتقرّحت عيونهم، وشقَّ عليهم فراقهم، فراحوا يبعثون بزفرات ساخنة ترجمتها أشعارهم الحزينة الباكية على فلذات أكبادهم، الذين رفعوا ألوية الجهاد استجابة لنداء ربهم، فضربوا في الأرض فاتحين.

كما أنطقت الفتوحات الإسلامية الصحابة والقادة، كعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد،بالبيت أو البيتين أو المقطوعة، ناهيك عن الأسرى والسجناء الذين عبّروا عن نفسيتهم المنكسرة، وأرواحهم المقيّدة، وحياتهم المغلولة.

وفي الفصل الثالث، وضّحتُ الأثر النفسي للفتوحات الإسلامية في الشعر العربي في صدر الإسلام، وركّزتُ على المواضيع الجديدة التي أحدثتها، فكان لخروج المسلم الفاتح من دياره ومرابعه الأولى، وحلوله بالأوطان الجديدة، محاربًا أو مأسورًا أومستقرًا، دافعا ومحفزّا للتعبير عن غربته، التي شعر بها، وأحسّ بمرارتها، فحنَّ إلى أهله ودِمَنه وخلانه، فأفاضت مدامعه وأضنت فؤاده، فسالت أشعارا نديّة هادئة بكل تلقائية وهو ما عرف بشعر الحنين، كما أن خروجه إلى هذه الديار الجديدة المفتوحة، جعله ينبهر بها تارة، ويستقبحها تارة أخرى، كرؤيته للقصور ومفاخرها، والسفن وقواتها، والفيَلة وضخامتها والطبيعة الجديدة بكل مظاهرها من جمال وبرد وثلج، كل هذا سجّلوه في أشعارهم، ووثّقوا للتاريخ الإسلامي المجيد.

وفي الفصل الرابع والأخير، عرضت الأدوات والوسائل التعبيرية والقوالب التي صاغ فيها شاعرنا هذه التجارب، والنغمات الموسيقية التي صحبتها، فحلّلت لغته وأسلوبه، وكذلك صوره وأخيلته لأنتهي إلى الموسيقى و الأوزان، رابطة بين كل هذه الأدوات وحالته النفسية، مركزة على إبراز الانسجام بين الموقف النفسي وكل هده الوسائل التعبيرية التي عبرت عنه متخدة من أشعار بعض الشعراء الفاتحين نماذج لدراستي.

وفي الخاتمة ذكرت النتائج التي توصلت إليها، والإضافات التي أراها جديدة والملاحظات التي لفتت انتباهي أثناء البحث، والتوصيات التي أراها ضرورية لاستكمال جوانب أخرى لهذا الموضوع.

أما عن الصعوبات التي واجهتني خلال بحثي، فهي كثيرة، منها قلّة الدراسات لهذا التراث الإسلامي الرفيع، وتناثر هذه الأشعار في كتب التاريخ والتراجم والسير، دون ذكر قائلها – في بعض الأحيان – والمناسبة التي قيلت فيها، أوشرحها مما أضطرني إلى البحث عنها في أكثر من مصدر أو مرجع، وكذلك قلّة الدراسات النفسية التي يمكن أن أعتدّ بها، رغم رجوعي إلى كتب عباس محمود العقاد التي درس فيها شخصية أبي نواس وعمر بن أبي ربيعة وابن الرومي، وكذلك كتب التفسير النفسي للأدب، ككتاب التفسير النفسي للأدب لعز الدين إسماعيل، وكتاب الأسس النفسية للإبداع الفني في الشعر خاصة لمصطفى سويف، وكلّها لا تفي بالمطلوب، لأن الحالات مختلفة والظروف متباينة.

وما أرقّني وأبعد النوم عن جفوني، قصَر المدّة المتاحة لنا لإنجاز هذا البحث،فكنت أتسارع مع الزمن، حتى لا يفلت مني، خاصة أنّني جمعت بين التدريس والبحث ومسؤوليات البيت، ومما كان يقوي صبري

ويشجعني على الاستمرار قول الشاعر:

ومن تكن العلياء همّة نفسه فكلّ الذي يلقاه فيها محبّب

وأخيرا أشكر الله شكرا جزيلا على تثبيتي وإعانتي،وأرجو أن أوفق في هذا البحث وغيره، كما أقدّم تشكراتي و أزفّ تحية خالصة إلى كل من قدّم لي يد العون من قريب أومن بعيد، وإلى كل باحث في حقل العلم والمعرفة ولنجعل نصب أعيننا قول الرسول صلى الله عليه وسلم:

" من سلك طريقا يبتغي به علما، سهّل الله له طريقا إلى الجنة"

رواه البخاري

وأختم هذه المقدمة بتقديم أعلى وأسمى العبارات بالشكر والتقدير إلى أستاذي المشرف الذي لم يبخل عليّ بتوجيهاته القيمة وبآرائه الصائبة وبأفكاره السديدة، فلقد حرصت على أن أنتفع بكل ملاحظاته وتعليقاته لما تحمله في طياتها من تجربة رائدة وخبرة مديدة. كما أزفّ إليه أسمى معاني التبجيل والتعظيم على سعة صدره، وطول نفَسه، وصبره، وخلاله الفاضلة الرفيعة، ومعاملته الإنسانية السمحة. فقد وفرّ عليّ مجهودات مضنية بإحالتي إلى مصادر قيّمة استفدت منها، كما زوّدني ببعض المراجع التي أنارت دربي، وأضاءت سبيلي، وأخدت بيدي. فلا يسعني في هذا المقام إلا أن أزجي له الشكر الجزيل بكل معاني التقدير والامتنان، وأدامه الله ذخرا للغة العربية، وسراجا منيرا لكل باحث نافع.

لمحة عن الحياة السياسية في صدر الإسلام:

" احتل الأحباش اليمن في سنة 525م. 97 ق.هـ، وبعد حوالي خمسين عاما سار أبرهة الأشرم والي اليمن من قبل ملك الحبشة بجيش كثيف على مكة وحاصرها عام 570م. ولكنه ارتدّ عنها منهزما، وكان في جيش أبرهة فيلة، ولم يكن أهل مكة قدرأوها من قبل، فسمّوا ذلك العام بعام "الفيل" وفي تلك السنة ولد محمد بن عبد المطلب بن هاشم في مكة، ونشأفيها يتيما، فقدتوفي أبوه قبل أن يولد، ثم توفيت أمه وهو في السادسة من عمره، وفي الخامسة والعشرين من عمره، تزوج محمد صلى الله عليه وسلم خديجة بنت خويلد، إحدى غنيات مكة، ولما بلغ الأربعين من عمره، إختاره الله لأداء رسالته وبعثه رسولا إلى الناس أجمعين، فدعا الناس إلى الدين الجديد، ومكث في مكة مدّة ثلاث عشرة سنة لم يزد فيها عدد المسلمين عن سبعين "[1] ، ولاقى من أذى قومه مالا تتحمله نفس، ثم أمره الله سبحانه وتعالى أن يهاجر إلى يثرب، فهاجر ومن معه عام 622م، فاستقبله أهلها بالترحاب ودخلوا في الإسلام، وطبقوا مبدأ الأخوة، وجعلوا إسم مدينتهم "مدينةالرسول" وبدأ التأريخ الإسلامي من يوم الهجرة.

وبإذن الله تعالى وقدرته، أصبح الإسلام دولة والمسلمون أمّة، لكن المشركين ظلوا على أحقادهم وراحوا يحوكون للنبي صلى الله عليه وسلم وللمسلمين مكائد بمعية اليهود المفعمة قلوبهم بالضغائن، "فكانت معارك كثيرة أشهرها غزوة بدر سنة (2 هـ. 623م)، غزوة الخندق (5 هـ)، غزوة حنين (8 هـ)،كما فتح المسلمون مكة في نفس السنة، مكة التي خرج منها النبي صلى الله عليه وسلم، وهي مسقط رأسه، ومنبع أخلاقه، ومهبط وحيه، عاد إليها فاتحا، مرفوع الرأس فقدّر الله له العزة بعد الذل، والنصر بعد الخيبة، والقوة بعد الضعف، فطاف بالكعبة

[1] ينظر، فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي. ج1، ص ص 237، 238.

وكسّرالأصنام و الأغلال التي منعت كثيرا من الناس من الدخول في الإسلام، وولجت أفواج كثيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم يشهرون إسلامهم، وانتشر الإسلام في شبه الجزيرة العربية " [1].

في سنة 11هـ.632 م لحق محمد صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى بعد أن قضى ثلاثا وعشرين سنة يؤدي رسالةربّه بكل أمانة وهو القائل يوما " والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر، ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه ". **عن صحيح البخاري. ج1 ص 265** .

"كان محمد صلى الله عليه وسلم رسولا وقائدا وحكمًا، استمد شرائعه وآدابه من القرآن الكريم الذي أنزله الله عليه منجّما. فلما وافه أجله لم يكن للمسلمين بدٌّ من اختيار حاكم يقوم على تنفيذ أمور دينهم، ثم يقوم بأمور دنياهم. فبايعوا أبا بكر عبد الله بن أبي قحافة خليفة عليهم.

فقضى أبو بكر سنتين في الخلافة حارب في أثنائهما المرتدين في المدينة. وبعث الجيوش للفتح ولإنقاد العرب الذين كانوا يعيشون في العراق وفي الشام تحت نير الفرس والروم، كما جمع القرآن الكريم في مصحف واحد.

وبعد أبي بكر جاء عمر بن الخطاب صاحب الحزم والعزم، ومكث في الخلافة عشر سنين، فتح المسلمون في أثنائها العراق والشام ومصر وفارس، وفي أيام عمر اتخذت الدولة الإسلامية شكلها الواضح، وأصبحت دولة ذات هيبة، فتآمر الفرس والروم على عمر، لأنه أزال إمبراطورية الفرس وبعض أعمال الروم ودسّوا اليه أبا لؤلؤة المجوسي الفارسي فقتله سنة23 هـ 644م."[2]

1– الفاخوري، حنا .الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. ص .298

2– نفسه.

"وبعد عمر تولى الخلافة عثمان بن عفان فاتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية في أيامه في مصر وليبيا وأعاد ترتيب القرآن الكريم بعد أن جمعه أبو بكر، فتآمر الناس عليه لأن قومه بني أمية تسلطوا على الدولة، ، واضطرب الأمر، فحاول إصلاح ما فسد، لكن زمام الأمر فلت من يده وحاصر الناقمون الثائرون عثمان في بيته في المدينة ، فقتلوه آخر سنة 35 هـ،656م بعد إثنتي عشرة سنة من الحكم، ثم تولى الخلافة علي بن أبي طالب، فاستمر الاضطراب وتوقفت الفتوح، بعد نشوب خلافات و فتنة بين علي بن أبي طالب ومعاوية بن أبي سفيان ونشأت الأحزاب (الشيعية والخوارج).

وفي سنة 40 هـ 661م قُتل الإمام علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه ليتولى معاوية بن أبي سفيان الحكم "[1]. ورغم نشوب الخلافات، ونشأة الأحزاب السياسية، وحوك المكائد ونسج الفتن إلا أن مسيرة الإسلام ظلت شاقة طريقها نحو فتح جديد ونصر مبين.

وخلاصة القول " أن النبي صلى الله عليه وسلم هو الذي بذر البذرة الأولى في أسلوب الفتح، بأمر من الله سبحانه وتعالى، وسار عليه من جاء بعده من الخلفاء الراشدين، واعتراه شيء من الركود إثر الفتنة الكبر ى التي ذكرناها لكن سرعان ما تدارك المسلمون ما كان قد فات على الحدود الغربية من شمال إفريقيا، وعلى الحدود الشرقية وما هي إلا فترة قصيرة حتى امتد سلطان الدولة الإسلامية من الهند إلى إسبانيا "[2] .

[1] الفاخوري، حنا .الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم. ص239.

[2] ضيف الله، محمد الأخضر .محاضرات في الحضارة العربية. ص 85.

لمحة عن الحياة الإجتماعية في صدرالإسلام[1]:

الإسلام دين وحركة في وقت واحد، ولقد عني الإسلام بهداية المسلمين وتزكية نفوسهم كما عني بإصلاح أحوالهم وتنظيم حياتهم العامة في الدولة وتنظيم حياتهم الخاصة في الأسرة.

وكانت أولى ثمرات الإسلام القضاء على العصبية القبلية، ذلك الرباط الذي كان في الجاهلية يشد الفرد إلى الفرد ويشد الجماعة إلى الجماعة، على أساس من القرابة العِرقية، وجعل المسلمين متآخين عرب وغير عرب تربطهم جامعة روحية هي " الأمة " لقول الله تعالى: **(ولتكن منكم أمّة يدعون إلى الخير، ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون)** [(2)]

قوّض الإسلام الحدود التي كانت قائمة في الجاهلية بين الطبقات الإجتماعية، وجعل المسلمين إخوة لا فضل لأحدهم على الآخر إلا بالتقوى، كماركزّ الرسول صلى الله عليه وسلم على ذلك في خطبة حجة الوداع، وكذلك قلّل الإسلام من الفروق الإجتماعية وحاول القضاء عليها بالزكوات و الصدقات ، وذلك بأن جعل للفقراء حقا في أموال الأغنياء. فالزكاة في الإسلام حق للفقير يضمن التكافل والتكافؤ الإجتماعيين.

أما المؤسسة الإجتماعية التي تبدّلت تبدّلا جذريا فهي الأسرة. فالأب لم يبق ربًّا للأسرة بمعنى (مالكها) يتّخذ الزوجات كيف يشاء ويبيع أولاده أو يجعلهم رهائن عند خصومه أو قوادًا، بل بمعنى القائم على شؤونهم ونظم الإسلام الزواج والطلاق بعد أن كانا فوضى ولم تكن المرأة في الجاهلية ترث، ولا كان الأب والأم يرثان فنزل قوله تعالى في سورة النساء:

[1] ينظر ، فروخ عمر . تاريخ الأدب العربي.ج1، ص 239

" يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظّ الأنثيين فإن كنّ نساء فوق اثنتين فلهنّ ثلثا ما ترك وإن كانت واحدة فلها النصف ولأبويه لكل واحد منهما السدس مما ترك إن كان له ولد فإن لم يكن له ولد وورثه أبواه فلأمه الثلث فإن كان له إخوة فلأمه السدس من بعد وصيّة يوصِى بها أو دَيْنٍ[1]".

و كذلك غرس الإسلام في نفوس المؤمنين شيما سامية، وخلالا رفيعة راقية، فدعا إلى طهارة النفس والارتفاع عن الدنايا و النقائص، فرسم طريق الفضيلة، ونبذ الفواحش ما ظهر منها وما بطن، وحارب سبيل الرذيلة، ومنح الحقوق لأصحابها، وحث على ضرورة العمل لأنه عبادة، فسما بالمؤمن إلى أعلى مراتب الخير والهداية، وحرّم كل ما يضر بالفرد والمجتمع كالربا والزنا والخمر والغش وغيرها، كما أبعده عن الخرافات والأباطيل التي كانت سائدة في الجاهلية.فآتجه بالمسلم اتجاها عقليا جديدا مرتكزا على المنطق والتفكير في القرآن الكريم والحديث الشريف.وبعد أن شدّ الإسلام الجماعة الإسلامية، بأواصرمن الرحمة والحقوق والدّين،نظّم علاقاتهم مع غيرهم من الأمم والشعوب، من الكتابين والملاحدة والوثنين:

"فأما أهل الكتاب فيدفعون الجزية مقابل حماية دمائهم و أموالهم حيث يمكن لهم أن ينسجموا مع المجتمع الإسلامي ونظامه مع احتفاظهم بما يدينون فهم أهل ذمة، أما الملاحدة و الوثنيون وأشباههم فلا يمكن لهم ذلك، لأنه لا يوجد بينهم وبين المجتمع الإسلامي قدرا مشتركا يضمن الانسجام في أي فرع من الفروع، لقيام التناكر والتخالف بينهم في أعمق الأسس والجذور. أما الذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكيد للإسلام والمسلمين، فهم المنافقون الذين حاربهم

---

(2) سورة آل عمران. الآية **104**.

[1] سورة النساء، الآية **11**.

الإسلام ودعا إلى مقاطعتهم. وبخروج العرب بالإسلام إلى الفتح ،بدأ اختلاط العرب بغيرهم من الأمم، وبدأت الحياة الحضرية تتسع وترسخ، ولكن آثار ذلك كله لم تتضح إلا في العصر الأموي"[1].

[1] ينظر ، عمر، فروخ . تاريخ الأدب العربي.ج1، ص 240.

لمحة عن الحياة الأدبية خلال الفتوحات الإسلامية [1]:

كان للشعر في نفوس العرب منزلة لا تساميها منزلة، ومكانة لا تدانيها مكانة، فهوديوان مآثرهم وسجلّ مفاخرهم واللسان الناطق بما لهم من فضل وما هم عليه من مجد وعز. ما من حرب تقوم بينهم إلا كان هو الذي هاج نارها وأوقد سعيرها، وكان الشعر يلين قساوة القلوب، ويجزل المنح والهبات، ويفتح النفوس بما يحمله من معاني سامية ذات دلالات مختلفة،كما كان ينشد في المحافل ومجالس السمر، غير أن رسالة الشعر قبل مبعث الرسول صلى الله عليه وسلم كانت قد انحرفت في غالب أمرها، ونهجت مسارًا لا يصلح أن يستقيم به أمر المجتمع فكان يصف المرأة أقبح وصف، ويهتك الحرمات ويوقد نار الحمية العصبية، ويخرق الحجب والأستار، ويحرّض الناس على التناحر والإقتتال، ثم جاء الإسلام، فكان ظهوره إيذانا بانقلاب أدبي رفع منزلة النثر، إذ صار فن الخطابة في المقام الأول من حيث الأهمية والإنتشار، لحاجة المسلمين إليها في العبادات والفتوح والغزوات ولكونها وسيلة لاستنهاض الهمم، وقدزاد الإسلام الخطابة بلاغة وحكمة بما كان يتوخاه الخطباء من تقليد أسلوب القرآن تمثيلا أوإشارة أو تهذيبا، حتى لقد يجعلون الخطبة برمّتها مجموع آيات، فازداد العرب أنفة وسمت نفوسهم ،فسما بها ذوقهم في البلاغة وشحدت قرائحهم بما شهدوه في البلاد والأمم الجديدة والألسنة الجديدة.

أما الشعر فإن الإسلام جمع كلمته حول الدعوة إلى الإخاء والمساواة، والعفّة في القول والأدب، فحرّم الفواحش على الناس، وحذرهم من باطل القول وزوره، ويتجسد هذا في ردّ حسان بن ثابت شاعر

[1]– ينظر. زيدان، جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية. ص **189**.

الرسول $ لما قيل له " ضعف شعرك يا حسان" فقال : " إن الشعر يزيّنه الكذب وإن الإسلام ينهى عن الكذب".

كما أخمد في النفوس حميّة الجاهلية، وأمات فيها روح العصبية، وحرّم كل الموبقات مما جعل بعض الأغراض الشعرية التي تتناقض مضامينها مع قيم الدين الجديد تتراجع، واقتصر دور الشعر على الدفاع عن الإسلام ومواكبة مسار الدعوة وخاصة في مجال الفتوحات الإسلامية وقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم يشجع الشعراء على توظيف الشعر خدمة للدعوة فقال لحسان بن ثابت : "اهجهم (يعني قريشا) وروح القدس معك"، وكان يقول "إن من الشعر لحكمة" يشير إلى الأشعار التي فيها تديّن ودعوة إلى الحق ودفاع عن الإسلام، ومن أقواله أيضا أصدق كلمة قالها شاعر قول لبيد" ألا كل شيء، ما خلا الله باطل" وكان يجيد أشعار إبن أبي الصلت لما فيها من ذكر الله والمبعث.

كما قال النبي **صلى الله عليه و سلم** للأنصار يوما "ما يمنع الذين نصروا رسول الله بسلاحهم أن ينصروه بألسنتهم ". فانتصب للدفاع عنه ثلاثة هم حسان بن ثابت، كعب بن مالك، عبد الله بن رواحة.

" وسار الشعر في عهد الخلفاء الراشدين على نفس خطة الرسول صلى الله عليه وسلم في التمييزبين شعر وشعر، وشاعر وشاعر، وحرّض عمر بن الخطاب المسلمين على حفظ الشعر فقال: "روّوا أولادكم ما سار من المثل وحَسُنَ من الشعر". وقد قصد أحسنه، ويوافق هذا قوله : "اروا من الشعر أعفّه". وزادت حاجتهم إلى الشعر، لما فسرّوا القرآن الكريم، حيث يقول ابن عباس "إذا قرأتم من كتاب الله، فلم تعرفوه، فاطلبوه في أشعار العرب" [1].

[1] **زيدان، جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية. مجلد 1، ص 191.**

وما ذكَرَته كتب السيرة والتاريخ الإسلامي، أن جلّ الصحابة نظموا الشعر، فأبو بكر نظم أشعارا حماسية في بعض الغزوات، وعمر نظم أبياتا في الحكمة، أما عليّ، فأشعاره كثيرة والملاحظ –حسب اعتقادنا– أن الشعر قلّ في عصر الراشدين، لاشتغال المسلمين بالفتوحات، وعدم استقرارهم، إلا ماقيل في الجهاد والتحريض عليه أو الإشادة بالدعوة الإسلامية، أو الغربة والحنين والرثاء....

يقول ابن سلام الجمحي: "فجاء الإسلام، فتشاغلت عنه العرب، وتشاغلوا بالجهاد وغزوا فارس والروم، وتلهّت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام،وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار فراجعوا رواية الشعر"[1]:

.

ويمكن إجمال أغراض الشعر في صدر الإسلام كما يلي:

أغراض الشعر في صدر الإسلام [2]:

هجرالشعراء الأغراض المنافية للدّين وتعاليم الإسلام، كالغزل والميسر والفخر الكاذب، الهجاء المقذع، وكذلك قلّ الكلام في الخمر ووصفها، تعلق الناس بالمدح، وصيد الوحش وطرده، مما يعدّه المسلم لهوا وعبثا. واقتصر الشعر على الأغراض الآتية:

- الدعوة إلىالإسلام ومبادئه ومناضلة خصومه وأشهر شعراء هذا الغرض: حسان بن ثابت –كعب بن مالك – عبد الله بن رواحة.
- **رثاء** من استشهدوا في غزوات الرسول **صلى الله عليه و سلم** في الفتوحات الإسلامية، ومن قتل ظلما من الخلفاء وكبار الصحابة.

(1) الجمحي إبن سلام . طبقات فحول الشعراء. ص 22.

(2) ينظر. خفاجي عبد المنعم . الحياة الأدبية في عصر صدر الاسلام. ص 160.

- **الفخر** والتباهي بالإنتصار على جيوش الفرس والروم والتمدح بشجاعة المسلمين وأبطالهم، ووصف المعاقل والحصون وآلات القتال التي حارب بها الفرس العرب، ووصف جبال الثلج والأنهار العظام وسفن البحر وسوى ذلك مما ملئت به كتب المغازي والفتوح وقد كثرت في هذا النوع الأراجيز.
- **الحكمة**: كثرت في الشعر في هذا العصر بتأثير ثقافة القرآن الكريم والدّين والتجارب الكثيرة التي أفادوها من الحياة.
- **المدح**: ويبدو أثر الإسلام في معانيه واضحا، كمدح حسان بن ثابت للرسول الكريم صلى الله غليه و سلم وكذا مدح كعب بن زهير والنابغة الجعدي ...
- **الوعظ والتزهيد**: كما نظم الشعراء المسلمون في الوعظ والتزهيد في الدنيا،و الدعوة إلى تقوى الله متأثرين في ذلك بالإسلام.

فكان الشعر من أسلحة الدعوة الإسلامية، والشعراء ألسنة مجاهدة لتثبيت دعائمها، واستقرار قوائمها، ومن هذا ندرك أن رسالة الشعر في هذه الفترة التي صلحت فيها الأخلاق، وتطهّرت القلوب واستنارت الأفئدة كانت سمحة لاتعرف الفحش، ولاتحب الجهر بالسوء، ولا تألف الخوض فيما حرّم الله، فهي رسالة مستمدة من روح الإسلام وتعاليمه الكريمة وآدابه القويمة، ودعوته الحقة إلى معاملة الناس أكرم معاملة.

" وما كراهية فريق من أتقياء المسلمين للشعر وانشغال الناس بالفتوحات، لعلّ كل ذلك كان من الأسباب التي جعلت شعرهذه الفتوحات فاترا ضعيفا" [1].

فما هي الأغراض الأدبية التي راجت أثناء الفتوحات الإسلامية؟.

[1] **مصطفاي موهوب . المثالية في الشعر العربي، ص 98.**

إن "**شعر الفتوح هو شعر بطولة ومواجد ووصف للحروب وحنين إلى الأوطان**" [1].

فلما انتشرت الجيوش العربية في الأمصار، أخذ بعض المحاربين يقول الشعر، وكان شعرهم في البطولة أو في المواجد، تغنوا بإقدامهم وقوة كتيبتهم ووصفوا المعارك ومواقف الإنتصار،كما وصفوا ما قاسوا من متاعب وما اجتازوا من بلدان، وحنّوا إلى مرابعهم الأولى، ذاكرين الأهل والخلان، "ولا يخرج شعر البطولة هذا عن أن يكون لونا من ألوان الفخر، الذي عرفته الحياة الجاهلية غير أنه اكتسى هذا الصبغ الإسلامي الخفيف أو القويّ فهو يتحدث عن الإسلام والدين، وهويذكر الله والرسول صلى الله عليه و سلم وهو يصدر عن روح الجماعة أكثر مما كان شعر الفخر الجاهلي الصادر عن الفرد أو القبيلة" [2].

وكذلك واصل شعر الفتوح سيره، بسبب الحروب التي دارت وراء الحدود وبسبب الفتن السياسية والدينية ،وكان مدار هذا الشعر حول الحماسة والفخر وهجاء العدو ورثاء القتلى ولوعة الإغتراب والحنين إلى الأوطان ووصف الطبيعة الجديدة بكل مظاهرها.

"ومن أشهر شعراء الفتوح في صدر الإسلام عمروبن معد يكرب الزبيدي الذي شهد واقعة القادسية، ومات في آخر خلافة عمر بن الخطاب، وأكثر شعره في الحماسة وذكر الفتوح، وقدنسجت أساطير حوله وحول سيفه الصمصامة" [3].وممن اشتهر بالرثاء "أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي" .

---

[1] **الفاخوري حنا . الجامع في تاريخ الأدب العربي. الأدب القديم، ص385.**

[2] **فيصل شكري .المجتمعات الإسلامية في القرن الأول هـ، ص 347.**

[3] **الأصفهاني أبوالفرج. الأغاني. الجزء 21، ص 54.**

هذه الموضوعات الجديدة التي عبّر عنها شعر الفتوحات نتيجة طبيعية لحياة الفاتحين في بيئة جديدة عنهم وبعيدة عن أوطانهم، وأول هذه الموضوعات ما نسميه بشعر الحنين، ونعني به ذلك الشعر الذي يعبر عن أشواق الشاعر التي كانت تملأ جوانبه، وعن المواجع التي كانت تلذغ كبده، نتيجة بعده عن وطنه، عندما يتذكر مرابعه الأولى فيحن إليها، ويذكر أهله الذين فارقهم ويتمنى لقاءهم فيشكو بعده واغترابهم عنه، كهذا المجاهد الذي يشكوغربته إلى قمرية خالها غريبة مثله في مرو الشاهجان فقال:

أقمرية الوادي التي خان إلفها من الدهر أحداث أنت وخطوب

تعالي أطارحك البكاء فإنّنا كلانا بمرو الشاهجان غريب [1].

فالأدب فن جميل يعتمد على عذوبة الكلمة وسحرها وقدرتها على التأثير، أوهو التعبير الجميل عن التجربة الإنسانية، ولكي يكون للتعبير مفعول، فقدحرص الشعراء منذ عهدهم البعيد، أن يشحنوها بأجمل المعاني وأكثرها ارتباطا بعواطف الناس، وأدناها إلى الإعراب عن مكنونات نفوسهم، طبقا لملابسات الحياة وروح العصر. فالقدرة على الإيصال والتأثير، أتاحت لشعرائنا دائما، أن يتبوؤوا مقام الخلود على مرّ العصور فإذا ما نحن بحثنا عن مواطن المتعة و الجمال في شعرهم نجدها كامنة في جودة التصوير وصدق العاطفة،ولطف الخيال وخصوبته وصدق البداهة في تصوّر الأشياء والإحساس بها،وكل هذه الخصائص بدت واضحة في شعر الفرسان المسلمين، الذين حملوا على عاتقهم وعد فتح بلاد الفرس والروم، وإشعاع نور الإسلام فيها، وقد أدّى اتساع أرض الإسلام، في عصر صدر الإسلام إلى وصف مناظرأخرى جديدة، لم يألفها العرب مما أدى إلى إثراء موضوع الطبيعة وتلوينه ببعض مقتنيات الحضارة الفارسية والرومانتية.

[1] القاضي، النعمان، عبد المتعال . شعر الفتوح الاسلامية في صدر الاسلام. ص 254.

ونستخلص من كل ذلك، أن عصر صدرالإسلام قد شهدبداية التحول نحو شعر إسلامي جديد صحيح أنه شعر يستلهم البناء الفني للقصيدة الجاهلية من ناحية اللغة والإيقاع الذي يجري على نفس البحور القديمة ولكنه من ناحية أخرى شعر يتحرك أحيانا كثيرة داخل مضامين إسلامية خالصة، وهي مضامين أضافت إلى لغة الشعر تعبيرات لغوية مستقاة من القرآن الكريم، أومستندة إلى المبادئ الإسلامية في كثير من الأحيان كما يبدو عند غالبية الشعراء المخضرمين.

فموقف القرآن الكريم وموقف الرسولصلى الله عليه و سلم يهدفان إلى تغيير الأخلاق، وتبديل الطباع والإنسلاخ من عبء الشعراء، وبذلك يكون الدّين قد وقف موقفا طبيعيا واضحا.

لمحة تاريخية عن الفتوحات الإسلامية :

أسباب الفتوحات :

كيف تجرأت شرذمة من العرب- وهم أهل بادية – على مهاجمة تينك المملكتين العظيمتين : الفرس والروم اللتين كانتا تمثلان التحضر والاحترام ، ويضرب بهما الأمثال في ضخامة الملك والهيبة ، لو لم تكن عدتهم الإيمانية بصدق الدعوة عتيدة ، وتوقهم إلى جزاء الآخرة شديد، و مارد المغيرة على رستم القائد الفارسي في أثناء واقعة القادسية إلا دليلا على ذلك:

حيث قال له:" يدخل من قُتِل منّا الجنّة ومن قُتِل منكم النّار "

كما أن التماسك والتآزر والإلتفاف حول الإسلام ، ونبذ التفكك والعصبية ساعد على ذلك ، إلى جانب رغبة العرب في فتح الشام والعراق ومصر ،لما علموه من خصوبة تلك الأراضي وكثرة خيراتها، خاصة أن بلادهم قاحلة لا تفي مطالبهم بعد تلك النهضة الدينية .

عوامل الفتوحات : [1]

تظافرت عوامل كثيرة لتصنع من حروب المسلمين مع تلك القوى العاتية، فتوحات كان لها صدى في كل المعمورة آنذاك، ولايزال المسلم يفتخر بها وكتب التاريخ تزخر بتلك الصفحات الناصعة في التاريخ الإسلامي ، ومن تلك العوامل نذكر:

1- **الاتحاد بالإسلام** : كان العرب قبائل مشتتة متباغضة ، فأصبحوا بالإسلام أمّة واحدة بقلب رجل واحد فاتحدوا بالإسلام وتوحدت كلمتهم، ورفعوا رايته مجاهدين في سبيل الله .

[1] ينظر، زيدان ،جرجي . تاريخ التمدن الإسلامي، ص ص 52.-56

2- **صبرهم** : أَلف العرب شظف العيش ، فهم لا يبالون بالجوع ولا بالعطش ، وقد لا يحملون طعاما بل يقتاتون ممّا يكسبونه ، فالعربي يركب ناقته ، يحمل عليها أثقاله ، يتغدى من لبنها وهي تقتات بالعشب في الصحراء ، وتصبر على الجوع وتحمل الظمأ أياما ، أما الرومي أو الفارسي فلا يتحمّل ذلك ، ولا ينتقل إلا بمؤونة وذخيرة، وعند الحروب بعدّة وعتاد ضخمين كما وصف المتنبي الروم عند قدومهم في معركة"الحدث" مع سيف الدولة في العصر العباسي .

أتوك يجرّون الحديد كأنما سَرَوا بجياد مالهن قوائم

3- اعتقادهم بالقضاء والقدر: آمن المسلمون بأن لكل أجل كتاب، وأن الإنسان لا يموت إلا إذا جاء أجله لقوله تعالى :**(فإذا جاء أجلهم لا يستقدمون ساعة ولا يستأخرون)** [1]

4- مهاراتهم في ركوب الخيل ورمي االنبال :

كان العرب أمهر من الفرس والروم في ركوب الخيل ورمي النبال لتدريبهم عليها مند الصغر ، لأن النبي "صلى الله عليه وسلم" مرنهم على ذلك ودعاهم إليه .

5- رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه :

من الدين وهبوا أنفسهم لله، وضحوا بكل ما يملكون في سبيل رفع رايات الجهاد عالية، وكانوا صادقين فيما عاهدوا الله عليه لانهم امتازوا بخصال النصر ، الدهاء ، القيادة والحكمة، وتميزوا بها عن غيرهم نذكر منهم:أبا عبيده بن الجراح، سعد بن أبي وقاص، يزيد بن أبي سفيان، حمزة بن عبد المطلب علي بن أبي طالب عمرو بن العاص، زياد بن أبيه ، أبا بكر الصديق عمر بن الخطاب وكلهم من ذوي الحزم والعزم والتقوى.

---

(1) **سورة الأعراف. الآية 34**.

6- خط الرجعة :

حافظ العرب في حروبهم ضد الفرس والروم على خط الرجعة فلا يقاتلون إلا وهم في حيطة ، وكان حفظ ذلك الخط هيّنا عليهم لأنّهم كانوا يجعلون الصحراء وراءهم وهي ملجأهم، فإذا اندحروا لا يستطيع الفرس أو الروم اللحاق بهم، ولا يهمهم ذلك اللحاق ، ومتى عاد الروم إلى مساكنهم، عاد العرب عليهم.

7- نصر مبين وصبر جميل :

جرت واقعة اليرموك الشهيرة في السنة 13من رجب 15هـ الموافق ل:20 أغسطس 636 م ، التي بدأت في حياة أبي بكر، و اليرموك (واد بناحية الشام) يسيل فيه الماء حتى يصبّ قرب بحيرة طبرية واسمه اليوناني HIEROMAX عرّبه العرب (اليرموك) وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الواقعة الهائلة وهي ذات شأن عظيم في فتوح الشام ، لأن فوز المسلمين فيها نشّطهم على مواصلة الفتح وأضعف عزائم الروم حيث أنهم قاتلوا قتالا شديدا حتى النساء كن يقاتلن بالعصيّ ، فانتصر المسلمون وكان هذا النصر مقدمة سائر مانالوه في الشام . وكذلك واقعة " القادسية" في العراق فقد كانت فاتحة نصرهم على الفرس وقد صبروا صبرا جميلا في هذه الواقعة لأنّ أمرها طال كثيرا ، فكان النصر ثمينا لكنه مبين .

8- نقمة الرعايا على حكامهم [1]:

كان الروم والفرس منقسمين على أنفسهم ، وكانت الحياة الاجتماعية في بلادهم منحطّة ، فضلا عن الشحناء بين الرعية أهل البلاد الأصليين وحكامهم ، وخصوصا في مصر والشام ، فإن المصريين الأصليين وهم الأقباط كانوا قد عانوا سلطة الأجانب أجيالا متطاولة – الفرس فاليونان فالرومان – وهان عليهم الإنتقال من

[1] ينظر، أمين، أحمد. فجر الإسلام. ط 10، ص 84.

سلطة إلى سلطان فرارا من الظلم أو الضغط ، لا يهمهم حالهم روميا أو عربيا ... المهم أن تكون لهم راحة تحت سلطانه، وربما فضلّوا العرب لأنهم أقرب إليهم لغة ونسبا وأخلاقا.

9- اليهود :

انتقم اليهود للروم وساعدوا المسلمين على الدخول إلى المدن الرومية ، فكانوا يدلونهم على عورات المدن ويدخلونهم إليها نكاية في الروم وحكامهم لإضطهادهم وظلمهم لهم .

10- عدل المسلمين ورفقهم وزهدهم [1]:

رسالة المسلمين إذا خرجوا للفتح نبيلة وسامية وما وصية أبي بكر الصديق لأسامة يوم خروجه بالمسلمين إلى الشام الا دليلا على ذلك :

" لا تخونوا ولا تغدروا ولا تغلوا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلا ولا شيخا كبيرا ولا تعقروا نخلا وتحرقوه ولا تقطعوا شجرة مثمرة ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرا إلا لله ".

فهذه المناقب كان لها تأثير في تعجيل الفتح ، لأن أهل الشام والعراق ومصر كانوا يشكون استبداد حكامهم فيهم واحتقارهم إياهم ، فلما علموا بعدل المسلمين ورفقهم مالوا إليهم .

وخلاصة القول أن المسلمين لم يجرئهم على الفتح، ويساعدهم عليه إلا الدّين وشدة الاعتقاد بالنصر، مع ما كان من مهارتهم في الفروسية ورمي النبال ، وقوة أبدانهم ونشاطهم من عيشة البداوة ، مع المطاولة في الحرب ونبوغ أفراد منهم في الرأي والشجاعة ، فضلا عن عدلهم ورفقهم واختلال أحوال الروم والفرس ، فلم تمض بضع عشرة سنة حتى فتحوا الشام وفلسطين ومصر والعراق وفارس في زمن عمر بن الخطاب وتواصل الفتح في أيام عثمان بن عفان ومن بعده .

[1] ينظر، أمين، أحمد. فجر الإسلام. ط 10، ص 85..

مفهوم الجهاد في الإسلام :

يتلخص مفهوم الجهاد في الإسلام في حمل السلاح لمقاتلة أعداء الدّين الإسلامي لرفع راية الإسلام ولتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى، أو كما عرّفه الإمام على كرم الله وجهه : **(إن الجهاد باب من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، وذرع الله الحصينة وجنته الوثيقة فمن تركه رغبة ألبسه الله ثوب الذل، وشمله البلاء، وألزمه الصَّغارَ وَسَامه الخَسْف)**[1].

فيبذل المؤمن النفس والنفس من أجل هذا ، لما ينتظره من أجر عظيم وجزاء عند ربه لقول الله تعالى :

(فليقاتل في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيُقتل أو يُغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما) .

سورة النساء الآية 74

وكذالك في قوله :(**إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة يقاتلون في سبيل الله)**

سورة التوبة الآية 111

وقد جعل الله الجهاد تجارة تنجّي أصحابها من عذاب جهنّم بقوله تعالى :(**ياأيها الذين آمنوا هل أدلّكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، يغفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار).**

سورة الصف الآية 10

[1] إبن رشيق أبو الحسين بن علي بن رشيق القيرواني . العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص 33.

فاقتنع المؤمنون بفكرة الجهاد وحثّهم الرسول صلى الله عليه وسلم عليه حتى أصبح شعارهم "النصر أو الإستشهاد" وكان قدوة حسنة لهم حين حمل السلاح، وقاد المجاهدين بنفسه في غزواته، فكان مثلا رائعا يحتدى به وقال يوم بدر مبيّنا جزاء الجهاد في سبيل الله للمتّقي الصابر : "**والذي نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجلا فيُقتل صابرا مُحتسبا، مُقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنّة**".

رواه مسلم في صحيحه

فقال عمير بن الحمام السَّلمي ، وكان يأكل ثمرات بيده بخٍ بخٍ فما بيني وبين أن أدخل الجنة إلا أن يقتلني هؤلاء، ثم قذف الثمرات من يده وأخذ سيفه فقاتل القوم حتى استشهد وهو يقول :

ركضا إلى الله بخير زاد إلى التّقى وعمل المعاد

والصبر في الله على الجهاد وكل زاد عرضة النفاذ

غير التقي والبرّ والرشاد[1]

وظل المؤمنون يترامون على أسنة الرماح وشفرات السيوف بلا خوف ولا وجل، يستنهضون الهمم ويبعثون الحماس في النفوس إلى أن توسعت رقعة الدولة الإسلامية .

آيات تحض على الجهاد :

قال الله تعالى:(**فليقاتل في سبيل الله الدين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل في سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجرا عظيما**).

الآية 74 سورة النساء

[1] **معروف، نايف . الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين. ط1، ص 209.**

(ومالكم لا تقاتلون في سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها، واجعل لنا من لدنك وليّا وجعل لنا من لدنك نصيرا) .

الآية 75 سورة النساء

(والذين آمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت ، فقاتلوا أولياء الشيطان إن كيد الشيطان كان ضعيفا).

الآية 76 سورة النساء

(ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراغما كثيرا وسعه ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله).

الآية 100 سورة النساء

(ياأيها الدين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم إلى الأرض ، أرضيتم بالحياة الدنيا في الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل الا تنفروا يعذبكم عذابا أليما ويستبدل قوما غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شئ قدير ، إلا تنصروه فقد نصره الله).

الآيات 38-39-40 سورة التوبة

قال تعالى :(**قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم المؤمنين)**

الآية 14 سورة التوبة

وقال أيضا :(**ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم ، وهموا بإخراج الرسول وهم بدأوكم أول مرة ، أتخشونهم الله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين**).

الآية 13 سورة التوبة

وقال أيضا :(**قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخرة ولا يحرمون ما حرّم الله ورسوله ، ولا يدينون دين الحق ، من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون**).

الآية 29 سورة التوبة

وقال أيضا :(**انفروا خفافا و ثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ،**

ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون)

الآية 41 سورة التوبة

وقال أيضا :(**يا ا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير**)

الآية 73 سورة التوبة

وقال أيضا :(**ياأيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ، تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم**).

الآية 10-11 سورة الصف

وقال أيضا :(**إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص**) .

الآية 4 سورة الصف

وقال أيضا :(**والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم أعظم درجة عند الله، أولئك هم الفائزون يبشرهم ربهم برحمة منه ورضوان وجنات لهم فيها نعيم مقيم، خالدين فيها أبدا إن الله عنده أجر عظيم**) .

الآية 20-21سورة التوبة

لمحة تاريخية عن حركة الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام :

ما الحروب التي قادها الرسول صلى الله عليه وسلم إلا غزو ومقاتلة، كغزوة بدر الكبرى، غزوة أحد غزوة الخندق، و غزوة خيبر وغيرها " أما الفتوح الإسلامية فأوّلها فتح أرض بني النضير وهم يهود، وذلك سنة 4 هجري لما حاصرهم الرسول **صلى الله عليه و سلم**. ستة أيام، فطلبو إليه أن يخلّي سبيلهم على أن يحملوا معهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح، فأجابهم إلى ذلك، فخرجوا وظل ما بقي من أموالهم فيئا للنبي صلى الله عليه وسلم يعطي منه من يشاء، وكذلك حصل في **قريضة وخيبر**، وكان لخيبر حصون كثيرة فتحها المسلمون تباعا، وأوّل حرب مع الروم كانت في واقعة مؤتة وهي قرية من قرى البلقاء في حدود الشام سنة 8 هجري وكان العرب آنذاك لم يجربوا الجنود المنظمة بعد، فلم يفلحوا فعادوا إلى المدينة، وقد قتل منهم بضعة من خيرة الصحابة فيهم زيد بن ثابت، عبد الله بن رواحة، جعفر بن أبي طالب "[1].

وفي نفس السنة أي 8 هجري، دخل الرسول $. مكة فاتحا يتلو قوله تعالى: **(وقل جاء الحق وزهق الباطل، إن الباطل كان زهوقا)**[2]، بعد أن طاف بالكعبة سبع مرات وأمر بإزالة التماثيل والصور وتحطيم الأصنام. وقع هذا الفتح المبين بعد أن نقض أهل مكة الهدنة التي عقدت بينهم وبين الرسول $. في السنة السادسة للهجرة، فأغاروا على إحدى القبائل المحالفة للمسلمين فاستنجدت هذه القبيلة بالرسول صلى الله عليه وسلم، فسار إلى مكة في عشرة آلاف من المسلمين ولما علم أهل مكة بقدوم هذا الجيش خرج قادتهم خاضعين، وكان في مقدمتهم أبو سفيان فأكرمه الرسول **صلى الله عليه و سلم**.

---

(1) الحسين، قصي . موسوعة الحضارة العربية، ص 108.

(2) سورة الإسراء. الآية 81.

فتح بلاد الشام:13 هجري – 635 ميلادي

تجمّع المجاهدون المسلمون من سائر أنحاء شبه الجزيرة العربية في معسكرين بالجرف، في محرم سنة 13هجري ،635 ميلادي فبعث أبو بكر الصديق رضي الله عنه أربعة ألوية في مطلع صفر ؛ (الأول نحو دمشق بقيادة يزيد بن أبي سفيان والثاني نحو الأردن بقيادة شرحبيل بن حسنة، أما الثالث فاتجه نحو حمص بقيادة أبي عبيدة بن الجراح، والرابع نحو فلسطين بقيادة عمر وبن العاص، في حين حشد هرقل قيصر الروم آلافا من الجيوش لمواجهة جيش المسلمين وقادتهم، ودعّم أبو بكر رضي الله عنه جيش المسلمين بخالد بن الوليد لحنكته وتجربته وشجاعته فأمره أن يسير من العراق إلى الشام في نصف الجيش بعد أن خشي من قوة هرقل وجيشه الدي يفوق مائة ألف جنديا ،في حين جيش المسلمين لا يتعدى الأربعة والعشرين ألفا، فسلك خالد بن الوليد طريقا وعرة لم يسلكها غيره إلى أن وصل إلى البصرة، حيث التقى بشرحبيل بن حسنة ويزيد بن أبي سفيان وأبي عبيدة بن الجراح، وكانت أول مدينة دخلها المسلمون صلحا من بلاد الشام)[1] .

(وفي جمادي الثانية سنة 13هـ . 635م توجّه الجمعان، الروم والمسلمون في سهل فسيح شمال اليرموك يُعرف بالواقوصة، فأدرك خالد بن الوليد أهمية هذه المعركة الفاصلة في حرب الشام وأظهر حنكته العسكرية فوحّد الألوية تحت قيادة واحدة حيث قال لأمرائها : " إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي، اخلصوا جهادكم وأيّدوا الله بعملكم ، وإن هذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم ، لم نزل نردّهم ، وإن هزمونا لا نفلح بعدها أبدا)[2].

[1] البلاذري، أبو بكر. فتوح البلدان. ج1، ص ص 131–133.
[2] نفس المرجع . ج1، ص 160.

" وبدأت بطولات المسلمين في القتال عندما نادى عكرمة بن أبي جهل يبايع على الموت فلحق به عمه الحارث بن هشام وضرار بن الأزور في أربعمائة من أبطال المسلمين يقاتلون حتى الموت، فقتل معظمهم "وانضم إلى خالد بن الوليد القائد الأرميني "جرجه" الذي أسلم على يديه، وعلّمه الصلاة فصلى به ركعتين في فسطاطه ،ثم كرّ الروم على المسلمين فتصدّى لهم خالد ومعه جرجه فتراجع الروم، فزحف خالد بن الوليد بقلب الجيش مخترقا صفوف الروم، ففرّت الخيالة تاركين المشاة تحت رحمة سيوف المسلمين، واقتحم عليهم خالد خندقهم، فتراجع الروم تحت جنح الظلام على سهل الواقوصة وقتل من الروم في هذه المعركة حوالي الستين ألفا ، ويرجع ارتفاع عدد القتلى إلى أن الروم ربطوا بالسلاسل الحديدية والحبال ثلاثين ألفا منهم، كل عشرة بسلسلة لئلا يفرّوا من المعركة فإن سقط واحد منهم سقط الذين معه، وفر قائد الروم من المعركة "[1].

وبهذا نصر الله المؤمنين لأنهم أخلصوا نيتهم له، فبعد أن استولوا على دمشق سنة 635م ، دخلوا بعلبك وحمص وحماة ، ثم انحدروا إلى وادي اليرموك الذي يصب في الأردن قرب طبرية، وهاجموا جيوش الروم وتغلبوا عليها، وبهذه الغلبة فتحت لهم المدن السورية أبوابها من أنطاكيا إلى حلب إلى غيرها.

وفي سنة 640م كانت بلاد الشام كلها تحت ظل السيادة العربية .

[1] الطبري. أبو جعفر، محمد، بن جرير. تاريخ الطبري. ج5، ص 36.

فتوح العراق: (13هـ – 24هـ) (634– 644م)

تولى عمر بن الخطاب الخلافة بعد أن عهدها إليه أبو بكر الصديق قبل وفاته، وفي أيامه زحفت الجيوش العربية تريد العراق، (فكانت واقعة النمارق التي خرج فيها أبو عبيد بن مسعود الثقفي إلى الحيرة ومعه سليط بن قيس وسعد بن عبيد، وانضم إليه جمع كبير من العرب المسلمين في الطريق، وكان رستم قد بعث بجيش من المدائن، وعند وصول أبو عبيدة انضم إليه المثنى بن حارثة، وهزم الفرس في النمارق بين الحيرة والقادسية، ثم عبر الفرات واستولى على كل معسكرات الفرس وغنم أموالهم وفرض الجزية)[1].

ثم كانت وقعة البويب في رمضان، حين أرسل الفرس جيشا عرمرمًا مدجّجا بالعدّة والعتاد، فعبر الفرات و(التقى الجيشان الفارسي والإسلامي في البويب، وكان المسلمون قد استعدوا لملاقاته، فأبلوا بلاء حسنا، فتراجع الفرس فلحق المسلمون بهم نحو الجسر، فقُتل وغَرق كثير منهم، وفرّ البقية إلى المدائن، وقد أدت هذه المعركة إلى تثبيت أقدام المسلمين في السواد بين دجلة والفرات، فسيطروا على الحيرة، وأخذ المثنى بن حارثة يغزو الأنبار حتى وصل شمال تكريت، كما ثبت المسلمون بمواقعهم في الأبلة حتى سيطروا على إقليم البصرة) [2] وأخذوا يشنون الغارات على الفرس، وأصبح القضاء على دولة فارس نفسها وشيكا، بعد أن ضم العراق إلى الدولة العربية الإسلامية بفضل المجاهدين العرب المسلمين، وفي مقدمتهم خالد بن الوليد والمثنى بن حارثة الشيباني .

---

[1] البلاذري، أبو بكر. فتوح البلدان. ج 2 ،ص 209.

[2] الحسين، قصي . موسوعة الحضارة العربية في العصر الإسلامي. ص 289.

سار الجيش الفارسي بقيادة " رستم " فاحتل الجزيرة وحصّن المدن إلى الحيرة، فتراجع المثنى بن حارثة بعد أن نقض أهل الذمة في العراق العهود، فطلب الإمدادات من عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي قال: " **والله لأضربن ملوك العجم بملوك العرب** " وخرج بنفسه في أول محرم سنة 14هـ، ليعسكر في صرار قرب المدينة المنورة يريد غزو العراق، لكن الصحابة أشاروا عليه بإرسال سعد بن أبي وقاص، وخرج سعد في أربعة آلاف من المدينة المنورة، وقبل وصوله توفي المثنى بن حارثة متأثرًا بجروحه التي أصيب بها يوم الجسرفنزل سعد بن أبي وقاص في " شراف " حيث انضمت إليه القوات الموجودة في العراق.

التقى الجيشان الفارسي والإسلامي، وكان الجيش الفارسي قد جلب معه آلاف الفيلة، ناهيك عن المؤن الوافرة والأموال الطائلة.

وفي هذه الأثناء كان سعد بن أبي وقاص قد أصيب بقروح وبعرق النسا، فجلس في القصر يشرف على المعركة بعد أن أوكل أمر الحرب إلى خالد بن عرفطة، وجرير بن عبد الله البجلي وقيس بن المكشوح واستمر القتال ثلاثة أيام وليلة: يوم أرماث ويوم أغواث – يوم عماس – وليلة الهرير. وكانت الفيلة تنفّر الخيول العربية، إلى أن هاجم المسلمون الفيل الأبيض والفيل الأجرب، وهما أكبر الفيلة بأن طعنوهما في المشافر والعيون، فوقع الأبيض وفر الأجرب في النهر فلحقته سائر الفيلة.

وهنا وجد المسلمون الفرصة سانحة، – رغم قتالهم من أول النهار حتى المساء – وقد أبلى في هذه المعركة المجاهدون الشجعان بلاءً عظيما وفي مقدمتهم القعقاع بن عمرو، عاصم بن عمرو، حنظلة بن الربيع طليحة الأسدي، عمرو بن معد يكرب الزبيدي، جرير بن عبد الله البجلي، ضرار بن الخطاب خالد بن عرفطة، زهرة بن جوية ، أبو محجن الثقفي الذي رغم حبسه كان يخرج ويقاتل ثم يعود إلى حبسه فلما علم به سعد بن أبي وقاص أطلق سراحه.

" وفي صباح اليوم الرابع من " يوم القادسية " بدأ الفرس يلوذون بالفرار عبر النهر، بعد أن قتل منهم أكثر من عشرين ألفا على رأسهم قائدهم رستم الذي قتله هلال بن علقمة التميمي " [1].

لم يمهل سعد بن أبي وقاص الفرس كي يعيدوا تنظيم صفوفهم، بل عبر دجلة بعد أيام قليلة نحو المدائن عاصمة الفرس، وقد مهد له عاصم بن عمرو والقعقاع بن عمرو الطريق، ودخل المدائن في صفر سنة 16هـ/ 637م ولم يجد فيها أحدا، فالفرس هربوا إلى حلوان العراق، محملين بما استطاعوا حمله من الأموال والمتاع، ونزل سعد القصر الأبيض بعد أن اتخذ الإيوان مصلى. وغنم قصوره وكنوزه وأمواله وأقام تسعة أشهر في المدائن بأمر من عمر بن الخطاب رضي الله عنه الذي خشي التسرع في متابعة الزحف. وبعد أن حشد الفرس جيشا كبيرًا في " جلولاء " وهي حصن أحاطه الفرس بخندق مسيّج بمسامير حديدية، بعث سعد جيشا بقيادة ابن أخيه هاشم بن أبي وقاص سنة 16هـ – 637م، وفي مقدمته القعقاع بن عمرو الذي استولى على باب " الخندق " بعد قتال شديد، فدخل المسلمون الحصن ،والفرس يفرون أمامهم بعد أن جللت الأرض بقتلاهم حيث بلغت الآلاف فسميت " جلولاء " [2].

وبعد هذه الفتوحات أمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه سعد بن أبي وقاص ببناء مدينة برية بحرية لا يفصلها عنه بحر ولا جسر، حتى ينزل بها المسلمون الذين لم يألفوا المدائن وغيرها. ونزل سعد بن أبي وقاص الكوفة سنة 17هـ – 638م. كما بنيت البصرة عند ملتقى دجلة والفرات، بناء لطلب عقبة بن غزوان حتى يكون للمسلمين منزل يشتون فيه، ويقيمون فيه بعد غزواتهم.

---

[1] ينظر، البلاذري، أبو بكر . فتوح البلدان. ج 2، ص 314.

[2] الحسين، قصي. موسوعة الحضارة العربية، ص 292.

وقد تولى أبو موسى الأشعري بناءها، ثم أعيد بناء الكوفة والبصرة بعد تعرضهما للحريق، وأصبح سعد بن أبي وقاص أمير الكوفة وعقبة بن غزوان أمير البصرة.

وواصل المسلمون زحفهم لكن بكل حذر وحيطة، وبخطط محكمة من القادة ومن خليفتهم عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن فتحوا الأهواز والجزيرة.

وفي سنة 21هـ – 642م[1] ، وصل المسلمون إلى حصن منيع، محصن بالخنادق، واستطاعوا بعد حيلة من قائدهم النعمان بن مقرن المزني محاصرته، ودخوله بعد فرار الفرس منه وانسحابهم من خنادقهم وقد سمى المسلمون هذا الفتح " فتح الفتوح " لأنه لم يقم للفرس بعدها قائمة.

من هذا العرض السريع تبدو معارك المسلمين مع الروم والفرس، قد كلّلت كلها بالنصر، وكان المسلمون فيها غاية في الكفاية والجدّية، والبطولة والقدرة على الإنتصار بالعدد القليل وسقطت إمبراطوريتان عظيمتان هما الفرس والروم وساد حكم الإسلام بإذن الله وقدرته.

[1] - ، البلاذري، أبو بكر . فتوح البلدان. ج2، ص375.

فتوح مصر[1]: (**18هـ – 21هـ – 639م – 642م**)

إن فتح مصر كان ضرورة عسكرية حتى لا يطوّق البيزنطيون بلاد الشام من جهة الجنوب والغرب خاصة وأن الأرطبون كان قد فرّ إلى مصر.

وسار عمرو بن العاص في الطريق المحاذي لساحل البحر المتوسط متعقبا الأرطبون فوصل إلى " العريش" وفتحها في سنة 18هـ- 639م دون ان يلقى مقاومة تذكر لقلة وضعف حصونها. ثم زحف نحو الفرما (شرق بورسعيد) فحاصرها شهرًا حتى فتحها سنة 19هـ – 640م.

تابع عمرو بن العاص الزحف نحو " عين شمس "، حيث عسكر بقسم من جيشه، وأنزل قوة بقيادة خارجة بن حذافة في التلال وقوة أخرى في " أم دنين "، في حين جمع القائد البيزنطي " تيودور " عشرين ألفا من جنده لطرد المسلمين لأنّه ظنّ أنّهم قادمون جميعا من " عين شمس "، والتقى الجيشان في العباسية، وحلّت الكارثة بالبيزنطيين، فحاولوا الفرار، فأطبق المسلمون الحصار عليهم، وقتلوا معظمهم والتجأ الباقون إلى حصن نابليون فعبر المسلمون النيل وفتحوا الفيوم وأبواط.

" يقع حصن نابليون قرب مقر المقوقس (قيرس) حاكم مصر ، ومقابل جزيرة الروضة التي تحيط بها مياه النيل، ويعتبر من أقوى الحصون بعد الاسكندرية، وقد دام حصار الحصن سبعة أشهر، حتى تمكّن عمرو بن العاص من دخولة سنة 20هـ – 641م عن طريق الحيلة والخداع، فقد تسلّق الزبير بن العوام الحصن مع بعض أصحابه الشجعان بواسطة سلّم على حين غفلة من البيزنطيين، ثم كبّر مع أصحابه الشجعان فأجابهم

[1] - **ينظر، البلاذري، أبو بكر . فتوح البلدان. ج1، ص249.**

المسلمون جميعا فظن البيزنطيون أن المسلمين قد اقتحموا الحصن، ففرّ الحراس ونزل الزبير ومن معه إلى باب الحصن ففتحوه" [1]، واضطر المقوقس " قيرس " حاكم مصر للتوقيع على معاهدة الصلح ودفع الجزية.

ثم توجّهت الجيوش الإسلامية نحو الإسكندرية " فاستسلمت صلحًا بعد حصار دام أربعة عشرة شهرا ويقضي اتفاق الصلح بتسليم الإسكندرية على أن يبقى المسلمون مدة أحد عشر شهرًا خارجها حتى يبحر عنها البيزنطيون، ويدفع اهل الإسكندرية الجزية شهريا والخراج، وأن يقدموا لعمرو بن العاص مائة وخمسين مدنيا بمثابة رهائن " [2] وعلى هذا الأساس تكون الإسكندرية قد فتحت عنوة بينما فتحت سائر مصر صلحا، وخرج البيزنطيون من الإسكندرية بحرًا في أول محرم سنة 21 هـ - 242 م فدخلها المسلمون فاتحين.

وبعد فتح الإسكندرية، أراد عمرو بن العاص أن يجعلها عاصمة لمصر، فأمره عمر بن الخطاب رضي الله عنه ان ينزل بالمسلمين منزلا لا يحول بينه وبينهم نهر ولا بحر، فاختار مكان فسطاطة ونزل هناك فسميت البقعة " الفسطاط ".

وهكذا أسس عمرو بن العاص الفسطاط في سنة 21 هـ - 642 م، حيث بنى أول جامع في مصر عرف باسمه، وسمي أيضا جامع الفتح أو الجامع العتيق "[3]، وراح العرب ينظمون تلك المدينة الجديدة بما استفادوا من أساليب الفرس والروم، وبما علّمتهم إياه خبرة الأيام والأحداث، وهكذا أصبحت تلك الإمبراطورية الواسعة الأطراف موطنًا عامًا للغة العربية ينطق بها القاصي والداني، وموطنا عاما للأدب العربي في شعره ونثره .

---

[1] البلاذري، أبو بكر. فتوح البلدان. ج1، ص 259.

[2] ينظر، حسن، ابراهيم حسن. فتح مصر في التاريخ السياسي. ج1، ص 297.

[3] الحسين قصي. موسوعة الحضارة العربية. ص 303.

فتوح المغرب وافريقيا:

بعد فتح مصر زحف عمرو بن العاص نحو الطريق الساحلي حتى وصل طرابلس، فحاصرها شهرًا وامتنعت عليه لتحصنها داخل أسوارها جنوبا وشرقا وغربا وإحاطة مياه البحر المتوسط بها شمالا.

وانتهز عمرو بن العاص وقوع حركة الجزر وانحسار مياه البحر، مما أحدث ثغرة حيث لا وجود للأسوار جهة البحر.

فدخل طرابلس وصالح أهلها بعد أن رحل البيزنطيون عنها بالسفن سنة 22 هـ - 643 م [1].

« وفي تلك الأثناء كان عمرو بن العاص قد بعث عقبة بن نافع نحو الطريق الداخلي بين " برقة " و "زويلة" لافتتاح الواحات حتى لا تتحول إلى أماكن تجمع للمقاومة البربرية، فتقطع طريق العودة عليه، فافتتح "فزان" ثم "زويلة" في الجنوب قرب بلاد السودان.

كما بعث يسر بن أرطأة فافتتح واحة "ودان" سنة 26 هـ - 644 م » [2].

« تحولت برقة قاعدة للدولة العربية الإسلامية في غرب مصر، وأصبح بالإمكان متابعة نشر العروبة والسلام منها نحو المغرب حتى المحيط الأطلسي وهذا ما كان يهدف إليه عمرو بن العاص بعد القضاء على **غريغوريوس** الحاكم البيزنطي على ولاية افريقية، ولكنه اصطدم برفض عمر بن الخطاب رضي الله عنه لمتابعة الفتح في المغرب، والإكتفاء بما وصل إليه في هذه المنطقة ». [3]

وهكذا عاد عمرو بن العاص إلى مصر، بعد أن عين عقبة بن نافع حاكما على برقة وطرابلس، وأخذ يدعو أهلها البربر إلى العروبة والإسلام.

---

(1) ينظر، الحسين قصي. موسوعة الحضارة الإسلامية، ص 203.

(2) ابن عبد الحكم. فتوح مصر وافريقيا. ص 228.

(3) البلاذري. أبو بكر. فتوح البلدان. ج1، ص ص 265 – 266.

الفصل الثاني

الفتوحات أثر الفتوحات الإسلامية في الشعر العربي

أ- الإسلامية تذكي جدوة الشعر

ب- الفتوحات الإسلامية تنطق الشعراء

الفتوحات الإسلامية تذكي جذوة الشعر:

أنطقت الفتوحات الإسلامية الشعراء، فهذا يجد رغبة ملحّة في التعبير عن أشلائه المقطوعة، وهذه زوجة يَنطق زوجها ليصف حالها- وهي تودّعه بدموع ساخنة-لِما أثرّت فيه، وحزّت في نفسه، فراح يقنعها بأن خروجه للجهاد واجب لا مفرّ منه، وهو يشدّ رحاله للإلتحاق بإخوانه على جبهات القتال لفتح الأمصار الجديدة، وذلك أب عاطفة الأبوة تحرّك وجدانه، لحاجته إلى فلذة كبده الذي هو على موعد مع أمر ربّه للفتح المبين، فراح يتوسل إلى أولي الأمر، ليردّوه إليه كي يخفّف عنه متاعب الحياة، ويفكّ عليه أواصرها، فوقائع الدهر أضعفته وأهرمته، وهذا آخر فقدَ أخاه أو إخوته، أو خليله وهم يؤدّون حق ربّهم، فترك فراغًا مقيتا في حياته، وجرحًا عميقا بين جوانحه لا يندمل، كل هؤولاء عبّروا عن هذه العواطف الحارة، بأشعار سخيّة، حزينة، مبكية، فتفجّرت قرائحهم وتفتّقت عواطفهم، فنقلوا مواجعهم وآلامهم وآمالهم.

وعند قراءة ما أثرى به المؤرخون في روايا تهم التاريخية من شعر، ونقف عنده بتأنٍ، نستطيع أن نَجمعه في نوعين كبيرين هما :

أ- شعر البطولة.

ب- شعر المواجد.

أ- شعر البطولة:[1] هو الذي يشيد بالبطولات وبشجاعة المسلمين الفاتحين، وبقوّتهم، وقدرتهم وإقدامهم على مواجهة العدو.

[1] **- الجمحي بن سلام : طبقات فحول الشعراء ، ص 15.**

ب – شعر المواجد: [1] هو الذي يعبر عن الأشواق التي كانت تملأ نفس المحارب، والمواجع التي تلدغ كبده، فهو يشتاق إلى مرابعه الأولى، ويحنّ إلى مواطنه، فيذكر أهله وعياله وخلانه.

وكان الشاعر حين يتصدى للمبارزة أو حين تهتف نفسه بما تمليه عليه منازعه الداخلية **فيرتجز** ويغني لنفسه غناء قريبًا دانيا سهل التأني.

وبدايتنا تكون بأثر الفتوحات الإسلامية في إذكاء جذوة الشعر العربي حيث راح الشعراء الفاتحون، يحضّون على الجهاد، ويتهافتون عليه، ويتنافسون على الإستشهاد، فأشادوا ببطولاتهم وببسالتهم، وقدرتهم على مواجهة العدو، وحمّسوا الناس للدفاع عن الإسلام ونشره، حتى الصحابة رضوان الله عليهم والقادة ساهموا في هذه المعاني، لترسيخ فكرة الجهاد وليكونوا قدوة لغيرهم، فتنفّسوا ما يرغبون في تحقيقه شعرًا، وهو الجهاد في سبيل الله، حتى الإستشهاد أو النصر، فآنسابت أشعارهم بكل تلقائية تعبّر عمّا يصبو كل واحد منهم إليه، وما تهفو إليه نفسه التواقة إلى لقاء ربّها، وهذه نماذج حيّة تجسّد هذه الفكرة التي أذكت جذوة الشعراء.

الحض على الجهاد، التهافت عليه والتنافس على الإستشهاد:

أقبل جرير بن عبد الله البجلي على بني عمه، فقال : "يا معشر بجيلة، إعلموا أن لكم في هذه البلاد، إن فتحها الله عليكم خطا سَنيا، فاصبروا لقتال هؤلاء الفرس إلتماسالإحدى الحسنين؛ إمّا الشهادة فثوابها الجنّة، وإمّا النصر والظفر وفيهما الغنى من العيلة، وانظروا لا تقاتلوا رياءً ثمّ أنشأ جرير يقول في ذلك شعرا [1]

تلكم بجيلة قومي إن سألت بها قادوا الجياد وفضّوا جمع مهران

وأدركوا الوتر من كسرى ومعشره يوم العروبة وترالحي شيبان

---

[1] ابن آعثم الكوفي بن محمد أحمد. الفتوح. ج1. ص 274.

فسائل الجمع جمع الفارسي وقد حاولت عند ركوب الحيّ قحطان

عزّ الأولى كانً عزّا من يصول بهم ورمية كان فيها هلك شيطان

كان الكفور وبئس الفرس أنّ له آباء صدق نموه غير تبيان

قال : ثم حمل جرير بن عبد الله على جميع أهل جلولاء، [2] فلم يزل يطاعن حتى انكسر رمحه وجرح جراحات كثيرة فأنشأ بعض بني عمه يقول في ذلك شعرًا :

تواكلت الأمور فلم تواكل أخو النجدات فارسها جرير

جرير ذو الغنى وبما تولى أحقّ إذا تقسّمت الأمور

أغاث المسلمين وقد تواصوا وقِدر الحرب حامية تفور

أبا حفص سلام الله منًّا عليك دوننا بلد شطير

حمدنا فعل صاحبنا جرير ولم نحمد لك الوالي العطير

فلا تغفل بجيلة إنّ فيها دواء الداء والجبر الكسير[1]

ففي عزّ الحرب لما كانت رحاها تدور، وهي كالقِدر حامية تفور، كان شاعرنا يجول ويصول غير مكترث بأهوالها ولا مخاطرها، حاملا لواء النصر أو الإستشهاد، فبجيلة موطنه الأصلي تعتزّ وتفتخر بهذا الإبن البار المجاهد البطل، فهو دواء كل داء كما جاء على لسان ابن عمه، فنفسيته المحمّلة بالإيمان، المندفعة كالبركان تقذف أسنّة ورماحا في وجه العدو لا تتقهقر ولا تغفل، فهي دواء لكل داء وجبر لكل كسير.

---

[2] **جلولاء: مدينة فارسية قرب العراق.**

[1] - **إبن آعثم الكوفي ابن محمد أحمد : الفتوح، ج1، ص 275.**

وها هو زهير بن عبدشمس يرتجز لما جاول في ميدان الحرب رستما، أحدملوك الفرس، فطعنه طعنةً أثّخنه منها حتى كاد أن يسقط عن فرسه فيقول:

أنا زهير وابن عبد شمس طعنتُ ذا التاج رئيس الفرس

رستم ذا الثروة والدمقس فقد شُفِيَتْ اليوم منه نفس[1]

فالبيتان يعبّران عن نفسية الشاعر المريضة التي شفيت بقضائها على رأس رستم أحد ملوك الفرس، صاحب الثروة والحرير، وهذا يدّل على مدى تعطش المسلمين لدماء الفرس، رغبة في النصر والفتح أو الثواب والجنّة."فرستم هذا كان يجول في ميدان الحرب بين الأخوين زهير وعوّام إبني عبد شمس، وكذا رجل من المسلمين، يقال له جابر بن طارق النخعي الذي خرج إلى زهير وعوام ليعينهما على رستم، فآعتوره زهير والعوام وحمل عليه جابر بن طارق النخعي فضربه ضربة على تاجه فقدّا التاج وهامته، فخرّ رستم صريعا ثم نزلوا إليه فسلبوه" [(1)].

وأنشأ جابر بن طارق يقول:

دعانّي زهير والفوارس ترتمي إليّ إليّ يا ابن عمّ فهل ترى

فقلت له لبّيك عند دعائه أتيتك أنّى قاصد دونك العرى

بنفسي أنّي لا أبالي بحتفها بنفسك فأقصد عامرًا حيث انتهي

واضربه بالسيف قمّة رأسه فخرّ صريعً في العجاجة قد هوى

فغادرته وعيد الطير سواغب وجالت بنا خيل وذو الغدر قد مضى

فداك رئيس الفرس رستم سل به زهيرًا وعوًّاما وجابر ذا النهى [(2)]

[1] - نفس المرجع السابق ، ص **276**.

(1) (2) نفس المرجع السابق. ابن آعثم الكوفي. الفتوح. ج**1**، ص **277**.

فعلى الجهاد اِلتقى هؤلاء الأبطال البواسل، فتهافتوا عليه، وتنافسوا على الإستشهاد، وعلى رأس رستمِ اتفقوا، فكان لهم ذلك، فضربوه ضربة رجل واحد خرّته صريعًا، فهذه هي الروح الإسلامية التي تزرع في النفوس حب الجهاد في سبيل الله للقضاء على الكفر والكفّار، وهذه هي النفسيات القويّة الشجاعة الجريئة فحملت هذه الأبيات في طيّاتها بطولة فذة وثباتا مثاليا، وإقداما لا متناهيا وبسالة لا تضاهيها بسالة، وهي صفات تميّز بها جند الأعاجم، فكانوا جبالا صامدة في وجوه أعدائهم، بصبرهم وجَلَدهم وبطولاتهم القوية ونفسياتهم القوية السامية.

فمن مشهد الموت، اتخذو حافزا في الإقدام والإستمرار في الجهاد، وإيمانا بقدريته المطلقة التي لا تفزعهم ولا هم يخشونها.

طلب القائد العربي المثنى بن حارثة من الخليفة عمر بن الخطاب بأن يمده بنجدة من المقاتلين ليتابع تغلغله في بلاد فارس، فأرسل إليه نجدة على رأسها أبو عبيدة بن مسعود بن عمرو بن عمير الثقفي، واشتبك قتال عنيف بين العرب والفرس، وكانت الغَلبة للفرس لوفرة عددهم، واستشهد أبو عبيدة وسميّ ذلك اليوم" يوم الجسر " وكان من المقاتلين البارزين الشاعر أبو محجن الثقفي فقال في ذلك اليوم :

أنّى تسَّرت نحونا أم يوسف ومن دون مسراها فيافٍ مجاهلُ

إلى فتية بالطِّف نيلت سراتهم وغودر أفراس لهم و رواحل

فتأتي إلى فتية بالطّف[1] قُتِل خيارهم وخلَّفوا وراءهم رواحلهم

وأضحى أبو جبر خلاء بيوته بما كان يعفوها الضّفاف الأرامل

وأضحى بنو عمرو لدى الجسر منهم إلى جانب الأبيات جودُ ونائلُ

ومَا لمتُ نفسي فيهم غير أنّها إلى أجل لم يأتها وهو عاجل

وما رُمتُ حتى خرَّ قوا برماحهم ثيابي وجادت بالدماء الأباجل [2]

وحتى رأيت مَهرتي مُزوئرة لدى الفيل يدمي نخرها والشواكل [3]

ومارَحت حتكنت آخر رائح وصُرِّع حولي الصالحون الأماثل

مررت على الأنصار في رحالهم فقلت لهم : هل منكم اليوم قافل ؟

وقرَّبت روَّاحًا [1] وكورًا [2] ونمرُقًا [3] وغودِر في ألّيس [4] بكرٌ ووائلُ

ألا لعن الله الدين يسرّهم ردايَ وما يدرون ما الله فاعل [5]

لم يقاوم الشاعر أبو محجن الثقفي تقاليد القصيدة العربية، فبدأ قصيدته بتشبيب ذكر فيه أم يوسف فحَنَّ إليها وتساءل متى تمرّ إليه ليلا وهي تبعدها عنه صحارٍ وفيافٍ مجهولة لأنه بهذه الديار الفارسية، فهذه الحرب نالت أشراف القوم وخيارهم، وغذرت بفرسان فطاحل، واستشهد أبو عبيد القائد المغوار، تاركًا بعده أرامل ضعاف كنَّ يتوجهن إلى بيته لجلب الرزق، فدفن مع بني عمرو في " يوم الجسر " الكرم والجود ويستطرد الشاعر لينفي اللوم عن نفسه لأنه لم يقصِّر في الدفاع عن أولئك بكل ما يملك لكنه قضاء وقدر فأجلهم قد حضر، وأجله قد تأخر رغم الطعنات التي تلقاها من الأعداء، والتي خرّقت ثوبه،وأسالت الدماء من

---

(1) الطفّ : مادنا من الريف.

(2) الأباجل : عروق في باطن الدراع.

(3) الشواكل : الخواطر

(1) روَّاح : اسم بعير الشاعر

(2) الكور : الرحل.

(3) نمرق : طنفسه، كلمة فارسية تكون تحت الرحل.

(4) ألّيس : موقع قريب من النخلية حيث كانت الموقعة بين العرب والفرس.

عروقه، ثم يتحدث عن الفَيلة التي أحضرها الجيش الفارسي معه و قد طعن نحرها و خواصرها مما جعل مهرته تنفر منها.و كان الشاعر آخر من غادر أرض المعركة بعد أن قُتل حوله أخيار الناس، فمرّ عليهم وعلى الأنصار طالبا منهم العودة ،و قد خسر ناقته "روّاح "و رحله وطنفسته كما ترك بأليّس أحبابه من بكر و وائل، وختم قصيدته باللّعنة على الذين يفرحون لِهَلاكه،وهم لا يعلمون ما الله فاعل ببقية حياته.

في هذه القصيدة الشاعر توّاق إلى الإستشهاد في سبيل نصرة الحق، وفتح جديد، وتوسيع رقعة الدولة الإسلامية، فكل مافي أبياته يوميء بذلك.

وعند تحليلنا لنفسية الشاعر من خلال هذا النص، نجده تعسا، حزينا، فما ذكره لأم يوسف إلا تعبيرًا عن مدى حنينه إلى دياره، وأهله وما زاد في تعكير جوّ حياته، هو فقدانه لأحبائه وخلانه، فهو متأثّر نفسيّا بهذا الفراق، وتمنى لو قضى نحبه برفقتهم، فرغم ما أصابه من طعنات حتى قُدَّ ثوبه إلا أن أجلَه لم يحن بعد، فهذا قضاء الله وقدره، لذا نجده – من خلال النص – في تقديرنا يتجرع آلام الغربة، وآلام فقدان أصدقائه، وآلام توْقِه إلى الإستشهاد،كل هذه المآسي اِجتمعت، فأخرجها زفرة ساخنة في شكل قصيدة نفسَّ بهاعن حاله.

فمعاني النص كلّها متدفّقة من وجدان صادق، ونفس مفعمة بالإيمان الخالص مشرئبةإلى ربّها طالبة الشهادة في سبيله ففي البيت السادس، يركزّ على مدى إيمانه بقضاء الله وقدره، وأن هذه النفس المشغوفة بما يطمح إليه لم يحن أجلَها بعد، فلكلّ أجلٍ كتاب، فرغم وُقوفه في ساحة الوغى يوم كانت الهامات للسيوف كالأغماد ورغم الرماح التي خرَّقت ثيابه وسقت بدماء عروقه التراب، إلّا أنّ العمر باقٍ، هذه المواقف ذبذبت نفسيته فبقي يجول في ساحة المعركة وما غادرها حتى قُتِل آخر جندي فيها، ولسان حاله يقول يا ليتني لحقت برفاق الدرب، وأصدقاء المسيرة.

---

(5) **الحموي ياقوت. معجم البلدان، ج4، ص 539، وأبو ذياب خليل أيوب، صدر الإسلام، ص 145.**

وهذا الأعور الشَّنى يشيد ببطولة المثنى بن حارثة، وبلائه في قتال الفرس فيقول: [1]

هاجت لأعور دار الحيّ أحزانا — استبدلَتْ بعد عبد القيس همذانا

وقد أرانا بها والشمل مجتمع — إذْ بالنخيلة قتلى جندِ مهرانا

أزمانَ سار المثنى بالخيول لهم — فقتّل القوم من فرس وجيلانا

سما لأجناد مهرانٍ وشيعته — حتى أبادهم مثنى ووُحدانا

ما إن رأينا أميرًا بالعراق مضى — مثل المثنى الذي من آل شيبانا

إن المثنى الأمير القرم لا كذب — في الحرب أشجع من ليث بخفانا

المثنى قائد عظيم إليه ترجع تلك المأثرة وهداية أمم كثيرة، كانت تابعة للفرس، لأنه أوّل من تجرّأ على غزو بلادهم، وأذاقهم النكال المرّ لكنه مات – رحمه الله – قبل موقعة القادسية متأثرًا بجراحة بعد أن مهدّ الطريق لغزو الفرس.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي وقدشهّر صمصامه في وجه الفرس، بعد أن تعب المسلمون من جهادهم طيلة اليوم، وقد خرجت لهم كتيبة جديدة من الفرس، فبعد أن حمسّهم ودعاهم للجهاد في سبيل الله **قال عمرو وقد وضع صمصامه على عاتقه:**

لقد علمت أفيال مدجح أنّني — أنا الفارس الحامي إذا القوم أضجروا

صبرت لأهل القادسية معلما — ومثلي إذا لم تصبر الناس يصبر

وطاعنتهم بالرمح حتى تبدّدوا — وضاربتهم بالسيف حتى تكسروا

بذلك أوصاني أبي وأبو أبي — بذلك أوصاه فلستُ أقصّرِ

[1] **الدسوقي عمر: الفتوة عند العرب، ص 195.**

حمدت إلهي إذ هداني لدينه فللّه أسعى ما حييتُ وأشكر [1]

وانتصر المسلمون على الفرس ودخلوا جلولاء[1] ، فجمعوا الغنائم والأموال حتى قال أحد المسلمين: رحم الله المثنى بن حارثة الشيباني أما أنه لو كان حيًّا لقرّت عيناه بهذا الفتح، فإنّي كنت قد سمعته مرارًا يقول: " وددت أنّي قد رأيت فتح جلولاء، ولو قبل موتي بيوم واحد "

أفكار جريئة كل لفظة فيها تنبيء بالفروسية والشجاعة والصبر، رغم أن جند المسلمين تعبوا من مقاتلهم الفرس طيلة اليوم، إلا أن شاعرنا بقي محافظا على وتيرته، محمِّسا قومه على المواصلة، فأيّ نفس كهذه النفس التي لا تضجر ولا تَنهك قواها؟ إنه الإيمان القويّ المحفّز على الإستمرارية، وإنها البسَالة في ساحات الوغى الدافعة إلى مقارعة الرؤوس والفوارس، وإنه مخزون الصبر اللامتناهي. صفات ومثالب متأصلة في نفس هذاالشاعر، متوارثة أب عن جدّ، ويعد في البيت الأخير الله على السعي حثيثا في المزيد من البطولات والأمجاد، والفتوحات والإنتصارات ما عاش، ويشكره علىهدايته له لهذا الدين السمح القويم.

وخلاصة القول حول هذا الموضوع :

هوأنّه اِنطلقت شاعرية شعراء الإسلام إزاء هذه الفتوحات وفاضت عواطفهم الإسلامية تبرز هذا الحدث فكان له صداه في نفوس المسلمين، اِنعكس على ألسنتهم فخرًا بالجهاد وحبّاً في الإستشهاد في سبيل الله، فأعلنوا الإستعداد لخوض المعارك بقلوب لا تعرف الملل وعزائم لا تتوانى عن الكفاح وما أسهم في إبراز هذا، هي الألفاظ والأساليب والمعاني، التي كانت مملوءة بالصخب، مشحونة بجلَبة الجيش وقوته، فكانت رَعبا ملأ نفوس الكفار وزاد من هذا الرعب، وحطّم من كبريائهم صيحات الشعراء الفاتحين التي حملت التمدح بشجاعة جنود

(1) ابن آعثم أبي محمد أحمد. الفتوح. ج 1، ص 287.

[1] - جلولاء : منطقة فارسية

الإسلام وذكر بلائهم في المعارك، ووصف خصالهم، متخدين من ذلك حربا نفسية لتوهين قوة الفرس والروم، فكان المسلمون في مستوى المواجهة لتهيئة الشعر للمسلمين قبل خوض المعركة الساخنة التي زاحم فيها السيف اللسان، بعد أن اشترك السلاحان في المعركة الواحدة.

فالفتوحات المتوالية، فتحت شهيّة المسلم لَأن يشهر سيفه في وجه عدوّه، ولسانه يلهج شعرًا، فتلاحم السلاحان؛ السنان واللسان وكوّنا معركة حاسمة في التاريخ، أشاد بها الأعداء قبل الأصدقاء، فما من معركة إلا سجّلها المسلمون الفاتحون شعرًا أو رجزًا.نشأ عند التوسع الإسلامي نوع من الشعر الملحمي بمناسبة انكسار الفرس وانهزامهم في القادسية حوالي سنة 635م، وثمة بعض المقطوعات الشعرية التي تعطينا فكرة عن نغمة الشعر المذكور، وقد يرتفع هذا الشعر أحيانا إلى مستوى الغنائية الملحمية كقول عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

ألمم بسلمى قبل أن تظعنا إنَّ لنا من حبها ديدنَا

قد علمت سلمى وجاراتها ما قطر الفارس إلا أنا

شككت بالرُّمح خيازيمه والخيل تعدو زيما بيننا [1]

واستطاعت هذه الخطوط الأولى للملحمة تغطية ظواهر أخرى تسجّل فتح العراق، كاِستيلاء المسلمين على طيسفون أو حلوان [2]،وقد خضع النغم عند شعراء البدو الخلّص لتأثير الوسط البدائي، فثمة إصرار على هول المعارك ومنظر النساء المنهزمات وصراخ الأطفال المذعورين والجرحى المثخنين كقول عوف بن عطية: [3]

ولنعم فتيان الصباح لقيتم وإذا النساء جواسر كالعنقر [4]

---

[1] **بلاشير رجيس. تاريخ الأدب العربي. ج 1، ص 106.**

[2] **طيسفون – حلوان. مدينتان فارسيتان بالعراق**

[3] **المفضل الصيني. المفضليات تحقيق وشرح الأستاذ شاكر وهارون. ص 165.**

[4] **العنقر : أصل البقاء والقصب والبردي.**

من بين واضعة الخمار وأختها تسعى ومنطقها مكان المئزر

ونكرُّ أولاهم على أخراهم كرَّ المحلاّء [1] عن خلاط المصدر

فهم ثلاثة أفرقاء[2]، فسَابح في الرُّمح، يعثر في النخيع الأحمر

ومكبّل[3] يفدي بوافر ماله إذ كان صاحب هجمة [4] أو أيصر

أو بين ممنوع عليه وقومه إن كان شاكرها وإن لم يشكر

وتحلُّ أحياء وراء بيوتنا حذَر الصباح وتحنّ بالمستمطر[5]

بطولة فذة، ثبات مثالي، إقدام لا متناهي وبسالة لا تضاهيها بسالة، تلك الصفات التي تميّز بها جند المسلمين في مواجهة جنود الأعاجم، فكانوا جبالا عاتية، في وجوه أعدائهم، سموا بخلالهم وشيمهم الرفيعة وصبرهم وبطولاتهم القوية، مستغلين رماحهم وسيوفهم الصوارم، ورغم تماسك شظايا الفرس وتداخل لبنه كالجدار المرصوص، إلا أن جند المسلمين هدّموه بعزائمهم وقدراتهم، وقتلوهم قتل الكلاب الفارة من غدر صاحبها وفي هذا يقول نعيم في واج الرَّوذ:

لما أتاني أن موتا ورهطه بني باسل جرُّوا جنود الأعاجم

نهضت إليهم بالجنود مساميا لأمنع منهم ذمتي بالقواصم فجئنا إليهم

بالحديد كأننا جبال تراءى من فروع القلاسم

---

(1) المحلاء : البعيد. يمنع من ورود الماء.

(2) أفرقاء: ج فريق سابح في الرمح.

(3) المكبل: المقيّد

(4) **الهجمة**: القطعة من الإبل.

(5) المستمطر: الموضع الظاهر.

فلما لقيناهم بها مستفيضة وقد جعلوا يسْمَون فِعل المساهم

صدمناهم في واج روذ بجمعنا غذاة رميناهم بإحدى العظائم

فما صبروا في حومة الموت ساعة لحدِّ الرماح والسيوف الصوارم

كأنهم عند انبثاث جموعهم جدارٌ تشظَّى لبنُه للهوادم

أصبنا بها موتا ومن لفَّ جمعه وفيها نهابٌ قسمُه غير عاتم

تبعناهم حتى أووا في شعابها نقتّلهم قتل الكلاب الجواحم

كأنهم في واج روذ وجوه ضئينٌ أصابتها فروج المخارم

لم يلبث العرب أن خرجوا من جزيرتهم يجاهدون في سبيل الله ودينه الحنيف، وقد نظموا حينئذ كثيرًا من الأشعار الحماسية وكانت الروح الإسلامية تتغلغل وتنفذ فيهم نفوذًا قويّا.

وهذا قيس بن المكشوح المرادي يتغنى بشجاعته وبما أبلى به الفرس في موقعة القادسية، فيقول عقب قتله لرستم قائد الجيوش الفارسية:

جلبتُ الخيل من صنعاء تردى بكلِّ مدجَّج كالليث سام

إلى وادي القرى فديار كلب إلى اليرموك فالبلد الشآم

وجئن القادسية بعد شهر مسوّمة دوابرها الكرام

فناهضنا هنالك جمع كسرى وأبناء المرازبة الكرام

فلمّا أن رَأيت الخيل جالت قصدتُ لموقف الملك الهمام

فأضرب رأسه فهوى صريعا بسيف لا أفلَّ ولا كهام

وقد أبلى الإله هناك خيرًا وفعل الخير عند الله نامِ [1]

اللمسة الدينية واضحة في هذه المقطوعة، على نحو شعر الفتوح كله، فالشاعر عبَّر عن حسن بلائه في سبيل إعلاء كلمة الله ونشر الدين الحنيف.

فهؤلاء الشعراء حملوا السلاح وخاضوا المعارك، فإذا بنفوسهم تفيض بالبيت أو البيتين أو بالمقطوعة تنفيسا وحثا لنفوسهم وتحميسا،وهؤلاء يمثّلون السواد الأعظم من الفاتحين، وشعرهم ليس إلاِ استجابة حرّة طليقة لتجاربهم وتأثرهم بمواقفهم النفسية الحافلة بالمشاعر والعواطف، ولذا يغلب عليه الرجز العفوي الحار الذي يتميز بطبيعة الإندفاع والإنفعال العنيف اللاهب نتيجة لقيامه بدور التحميس والحث في ظروف القتال.

كانت السرايا الإستطلاعية الحربية إلى بلاد الشام منذ سنة 5 هـ لكشف طريقها ومعرفة طبيعة أرضها تمهيدًا لنشر الإسلام فيها، لذلك اتخذ الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم المبادأة بالقتال لقمع المعتدين وتأديب الغادرين وتأمين الطريق التجاري للمسلمين، فسير جيشا قوامه ثلاثة آلاف مقاتلا يضم جعفر بن أبي طالب، وعبد الله بن رواحه وخالد بن الوليد ويقوده زيد بن حارثة.

سار هذا الجيش حتى وصل معان بأرض الشام، وراعه ما بلغهُ من قوم الروم التي تقدّر بمئتي ألف أو تزيد،فدبَّ الخوف في قلوبهم وسيطر على تفكيرهم وجاء وقوفهم ليلتين في معان دليلا على هذا الخوف، ولكن قوة الإيمان وحرارة العقيدة أغرت المؤمنين باستئناف السير للقتال، وشجعهم على المضي عبد الله بن رواحة بقوله:

" يا قوم والله إن التي تكرهون للّتي خرجتم، تطلبون الشهادة وما نقاتل بعدد ولا كثرة ما نقابلهم إلا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هي إحدى الحسنين إمَّا ظهور وإمَّا شهادة " [1].

---

[1] ضيف شوقي. التطور **والتجديد** في الشعر الأموي. ط9. ص **20**.

فقال الناس: " قد والله صدق ابن رواحة فمضى الناس ".

ولقد صوَّر عبد الله بن رواحة جيش المسلمين بخيوله المعدّة للقتال فقال:

جلبنا الخيل من آجا [2] وفرع تفر من الحشيش لها العكوم [3]

حَدَوناها من الصوان [4] سبتا [5] اذل كأن صفحته أديم [6]

ومع هذا الإستعداد الذي تضاءل أول الأمر في نفوس المؤمنين أمام قوة الروم، فتوقفوا ليلتين عن المسير في " معان " وقد سيطر عليهم الخوف في صمت،ولكن سرعان ما تبدّد هذا الخوف في نفوسهم وعمَّ الإيمان قلوبهم، فآستصغروا قوة الروم وبدوا في أعينهم قليلا مصمّمين على مواجهة الروم في أماكنهم معلنًا ذلك عبد الله بن رواحة في صورة التحدّي فيقول:

فلا وأبّي مآب لنأتيّنها وإن كانت بها عرب وروم

وهذا يمثّل قوة الإيمان التي تتضاءل أمامها الصعاب، ومن ثمَّ اِنطلق المؤمنون يستأنفون سيرهم بقوة ونشاط على خيول أعدّوها للحرب، فيواصل عبد الله بن رواحة وصفه بقوله:

فرحنا والجياد مسوّمات تنفس في مناخرها السموم

فعبأنا أغثتها فجاءت عوابس والغبار لها بريم

بذب لجب كأن البيض فيه إذا برزت قوانسها النجوم

---

(1) إبراهيم خليل عبد الرحمن. دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول. ص 408.

(2) أجا: جبل طيء.

(3) العكوم: الجنب

(4) الصوان: حجارة ملساء

(5) سبتا: النعال التي تصنع من الجلود المذبوغة.

(6) أديم: جلد.

فراضية المعيشة طلقتها أسنتها فتنكح أوتئيم[1]

وتَّظهر هذه الأبيات قوة إيمان عبد الله بن رواحة الذي حركّه إلى القتال في سبيل الله، حيث تمثّلَ الخيول المعدّة للقتال تسرع بدفع هذا الإيمان، وذلك ترجمة من حرارة هذا الإيمان في النفوس التي تجعل الحياة تنصهر بلذاتها وشهواتها أمام رضى الله والإستشهاد في سبيله، و هو أمل المؤمنين الصادقين حيث يقول أحدهم:

لكنني أسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فزع تقذف الزبدا [2]

يطلب هذا المجاهد الإستشهاد حبا في لقاء الله، ويناشد راحلته أن تسهم في تحقيق هذا الإستشهاد فيقول:

إذا أديتني وحملت رحلي مسيرة أربع من الحساء

فشأنك أنعم وخلاك ذم ولا أرجع إلى أهلي ورائي

وجاء المسلمون وغادروني بأرض الشام مشتهى الثواء

وردّك كل ذي نسب قريب إلى الرحمن منقطع الإخاء

هنالك لا أبالي طلع بعل ولا نخل أسافلها رواء[1]

وتوضح أبيات عبد الله بن رواحة الصحابي الجليل، والإمام المتقيّ، إيمانه بالله الذي تضاءل أمامه كل ما في الحياة من متعها ولذاتها ومن فيها من أهله وولده،وأصبح يتمنى الإستشهاد ويستحث مطيّته أن تسهم في تحقيق هذا الأمل بإذلالها الوعد بإطلاق حريتها،وأنّها ستنعم بعده بحياة طليقة، وسما به هذا الأمل حتى استحال إلى واقع في نفسه، أضحى ميتا حيًّا، وحيّا ميتا،فتشابه الموت والحياة في تصورّه، وتخيّل المسلمين وقد تركوه مسجى

---

[1] العسقلاني ،بن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة، ج 4، ص 67.

[2] ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية. ج4. ص 16.

في قبره حيث تنقطع صلةالإنسان إلا بالله،ويبدو زيف الحياة الدنيا، وبهذا الإيمان الذي مثلّه ابن رواحة قاتل ليموت منتظرًا ثواب الله ونعيمه، وسيكون ذكرى للمؤمنين الصادقين يذكرونه بهذا الإيمان فيقول:

حتى يقال إذا مرُّوا على جدتي أرشده الله من غازٍ وقد رشدا [1].

كما أبرزت أبيات ابن رواحة حرارة إيمانه الذي دفعه إلى حبِّ الإستشهاد، و قد أثارت إيمان المؤمنين فآسترخصوا به الحياة ،واستعذبوا الموت ،وجاءت مواجهتهم للروم مع قوتّهم التي تقدر بمائة ألف، وهم ثلاثة آلافِ انعكاسا لقوة الإيمان التي ذابت في حرارته الحياة ومَتعها، فاستشهد زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب فاستلم القيادة عبد الله بن رواحة، فقاتل بشجاعة الإيمان وحب الاستشهاد مغالبا نفسه وهواها منشدًا هذه الأبيات[1]:

أقسمت يا نفس لنزلنّه لتنـزلن أو لتكرهنّه

إن أجلب الناس وشدّوا الرنّة[2] مالي أراكِ تكرهين الجنّـة

قد طال ما كنت مطمئنة هل أنتِ إلا نطفة في شنه[3]

كما قال:

يا نفس إلا تَّقتلي فتموتي هذا حسام الموت قد صَليتِ

وأحسَّ بقرب تحقيق أمل الإستشهاد فقال:

وما تمنيتِ فقد أعطيتِ إن تفعلي فعلهما هُدِيتِ

وظلَّ يقاتل ببسالة متنقلا من فرس إلى فرس حتى استشهد مردّدًا قوله:

---

[1] إبن رشيق أبو علي الحسن بن علي بن رشيق القيرواني : العمدة في صناعة الشعر ونقده، ج1، ص .76

[2] - ابن كثير،محمد بن جربر.البداية و النهاية.ج4 ص242

[2] - الرنّة: العويل.

[3] – الشنة : السقاء البالي.

يا حبذا الجنة واقترابها طيّبة باردة شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

حتى إذا لقيتها ضرابها

فعند تحليلنا لنفسية هذا المجاهد البطل، هذا الفاتح الباسل نجدها مفعمة بالإيمان، جامحة عن الأعنة الكابحة دون الإستشهاد، عربيدة في طلبه، فالشاعر مقاوم عنيد لخلجات نفسه المحدّثة إيّاه بالتراخي والتباطؤ فيطلب منها خوض غمار الموت، لأنه متشوّق إلى اللحاق بصاحبيه الشهيدين: زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب، فما سبيل الهدى إلا هذا، فيخاطب نفسه بكل جرأة وثبات أن تصلى حمام الموت ولا تتوانى عنه حتى تهدى إلى الطريق المحفوف بالنعيم،طريق المجاهدين الأبرار والشهداء الأخيار.

وحين توجه عبد الله بن رواحة لغزو الروم، دعا له أحد أصحابه – حين كان يودّعه – بالعودة سالما فردّ عليه قائلا:

لكنني اسأل الرحمن مغفرة وضربة ذات فزع تقذف الزبدا

أو طعنة بيدي حِرَّان مجهزّة بحربةٍ تنفذ الأحشاء والكبدا

حتى يُقال إذا مرُّوا على جدثي أرشده الله من غازٍ وقد رشدا [1]

وهكذا حقق الله له مبتغاه، فكُتبت له الشهادة في تلك الغزوة .

إذ فككنا كلّ لفظة من هذه الألفاظ، وكلّ زفرة من هذه الزفرات نجدها تنمّ عن عقيدة راسخة ضاربة بجذورها في أعماق هذه النفس الأبيّة، الطالبة للمغفرة من الرحمن الرحيم، فكيف تجرؤ نفس على طلب طعنات

[1] – ابن هشام ، عبد الملك. السيرة النبوية ج4 ، ص 16.

تصخب لها الأحشاء والكبد، وتفزع لها الأطراف .وكم يكون صبرها وتكون نشوتها، وهي ثاوية في رمسها لما يردّد من يمرّ عليها، إنه كان غازٍ رشيد، فما أعظم هذه النفس! وأعظم منها خالقها، هذه النفس الطاهرة، التي استرخصت حياتها واستعذبت الموت لنيل الجنّة.

وبعد أن استجاب الله لدعائه، وآلتحقق بخالقه، " استلم القيادة بعده خالد بن الوليد فاستطاع بخطته المحكمة أن ينسحب بجيش المسلمين قافلاً إلى المدينة "[1]، وقد استولى عليه الحزن لفراق زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة وهم من خيرة الصحابة والصالحين، فسالت قرائح الشعراء رثاءً حزينا حارًا لتعكس هذا الشعور في الإشادة بشجاعتهم وإقدامهم في القتال وفوزهم بنعيم الجنّة.

وهذا هو حسّان بن ثابت يرثي شهداء " مؤتة "[(1)] مستفتحا قصيدته بأرقِ سيطر على نفسه وهَمٍّ بين جوانبه يلدغه فقال :

تأوبّني ليل بيثرب أعسـر وهَمٌّ إذامانوم الناس مسهر

لذكرى حبيب هيّجت لي عبرة سفوحا وأسباب البكاء التذكر [(2)]

إلى أن يصل إلى رثائهم فيقول:

رأيت خيار المؤمنين تواردوا شعوب [(3)]وخلقا بعد هم يتأخر

لا يبعدن الله قتلى تتابعوا بمؤتة منهم دوالجناحين جعفر

وزيد وعبد الله حين تتابعوا جميعًا وأسباب المنية تخطر

---

[1] – نفس المرجع السابق ، ص 19.

[(1)] مؤتة : قرية من قرى البلقاء في حدود الشام مما يلي حوران.

[(2)] ابن كثير، عماد الدين، أبي الفداء إسماعيل. البداية والنهاية، ج4، ص 291.

[(3)] شعوب : الموت

غذاة مضوا بالمؤمنين يقودهم إلى الموت ميمون النقيبة أزهر [4]

ثم يصور قتال عبد الله بن رواحة في صورة المستميت فيقول:

فطاعن حتى مال غير موسّد بمعترك فيه قنا متكسّر

فصارمع المستشهدين ثوابه جنان وملتف الحدائق أخضر [5]

كما يصوّر رثاء جعفر في صورة مدحه بالوفاء والإستجابة للرسول$ ترجمةً عن هذا الوفاء :

وكنّا نرى في جعفر من محمد وفاء و أوامرًا حازما حين يأمر

فما زال في الإسلام من آل هاشم دعائم عزّ لا يزلن ومفخر

هم جبل الإسلام والناس حولهم رضام [1] **إلى طود** [2] **يروق ويقهر** [3]

ثم يعود إلى الشهداء جميعا بعد رثاء كل شهيد :

هم أولياء الله أنزل حكمه عليهم وفيهم ذا الكتاب المطهّر [4]

وشعر عبد الله بن رواحة في سريّة مؤتة أدى دوره في دفع المؤمنين إلى الجهاد بقوة العقيدة وروح الإيمان وانطلقوا يواجهون قوة الروم في عزم وإيمان، وكانت المواجهة للقائهم دليلا على قوة الإيمان التي أنست المؤمنين حياتهم وأهليهم فباعوها لله مشترين بها الجنّة ونعيمها. فكان الإستشهاد وكانت المراثي التي مجّدت بطولات هؤلاء الأفذاد، وصوّرت أعمالهم الخالدة، وجهادهم المقوّي لروح المقاتلين المعنوية.

---

(4) (5) ابن كثير، نفس المرجع السابق. ج4. ص 291.

(1) رضام : ج رضم، الحجارة يتراكم بعضها فوق بعض.

(2) الطود : الجبل.

(3) (4) ابن كثير، عماد الدين أبي الفداء إسماعيل. البداية والنهاية، ج4، ص 291.

فما سبق ذكره من رثاء حسان بن ثابت لشهداء مؤتة وعلى رأسهم الصحابي الجليل عبد الله بن رواحة يفوح بأريج إيماني عبق.

قبل أن يؤسر ضرار بن الأزور، وكان مقبلا مع جند المسلمين لفتح دمشق، إنطلق لسانه يلهج شعرًا بطلب الغفران من ربّ السموات، فها هويتضرّع إلى الله أن يغفر ذنوبه، ويمحو خطاياه، ويوفقّه إلى خير الأعمال لينال أعلى مراتب الجنّة، فهو الفارس البطل الذي لا تضمحل عزائمه، ولا يُقمع بسيف أحد، فهو الباغ، القامع، نفسيته مفعمة بالإيمان، تصبو إلى خير الأعمال، وترجو الرحمة والمغفرة والثواب من الرحمن فيقول:

عليك ربّي في الأمور المتكّل اِغفر ذنوبي إن دنا مني الأجل

يا ربّ وفّقني إلى خير العمل عنّي وامحُ – سيدي –كلّ الزلل

أنا ضرار الفارس العِرم البطل باغ على الأعداء أضحى المنصل

أقمع بسيفي الروم حتى تضمحل مالي سواك في الأمور من أمل [1]

تغنّى أبو محجن الثقفي بالخمر، وهي موبقة وقد حرّمها الإسلام، وممّا قاله فيها:

إذا متُّ فآدفنّي إلى جنب كرمة تروّي عظامي بعد موتي عروقها

ولا تدفنّي بالفلاة فإنّني أخاف إذا متُّ ألا أذوقها [2]

فأدخله سعد بن أبي وقاص الحبس في بيته بسبب تغنّيه بها لأنه كان جنديا في جيشه، وكان يوم القادسية، فأخذ يلّح ويقنع زوجة سعد، والمعركة حامية الوطيس، بأن تفكّ قيده، وتعطيه فرس سعد "**البلقاء**" ليقاتل عليها، ووعدها أنه بعد نهاية المعركة، سيعيد القيد إلى رجليه، فكانت قصة جهادية طريفة، فالمرأة وافقت

---

[1] ابراهيم، عبد الرحمن، خليل. شعر الدعوة الاسلامية في عهد النبوة والخلفاء الراشدين. ص 112.

[2] الدسوقي، عمر. الفتوة عند العرب. ص 215.

بعد تردد طويل، ويخرج أبو محجن الثقفي إلى ساحات الوغي ويقصف الأعداء بسيفه قصفا منكرًا، وتعجّب الناس من أمره، وهم لم يعرفوه، لأنه كان ملثّما، حتىّ أنّ سعد بن أبي وقاص اِحتار في أمره، فراح يحدّث نفسه: الهجوم هجوم أبي محجن، والفرس فرسي لكن الرجل مقيّد، فمن يكون هذا ؟ إلى أن عاد إلى بيته وتحرّى في الأمر، فعرف الحقيقة، فعجب لأمر هذا الرجل ولنفسيته المتدفقة للجهاد في سيل الله، فرغم القيد والعزل إلا أنّه حقّق ماصبت نفسه إليه، وما ابتغته، ووصل إلى ساحة المعركة محمَّلا بشحنات من البسالة والشجاعة والصبر وقد قال في بلائه ذلك اليوم:

لقد علمت ثقيف غير فخر بأنّا نحن أكرمها سيوفا

وأكثرهم ذروعًا سابغات وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا

فإن أُحبَس فذلكم بلائي وإن أُترك أذيقهم الحتوفا [1]

وعاد بعد المعركة وقيّد رجليه، لكن نفسه لم تُقيّد يومًا، وبقيت جامحة في طلب الشهادة، والمنزلة الرفيعة في جنات الفردوس، وأكثر أبو محجن في هذه الأبيات من أسماء التفضيل تعبيرًا عن قدراته الفائقة في دوس الأعداء، وفي حمل السلاح، وفي الصبر على المكاره، فحرارة الإيمان دفعت بفتيان المسلمين إلى محاربة كل أمم الأرض، وشجاعتهم أذلّت كل جبار عنيد، فبرهنوا على أنهم اشدّ بأسًا، وأقوى عزيمة وأعظم إيمانا، وأنهم أبطال من اشتُهِر منهم ومن لم يُشتهَر، لقد كان شعار كل منهم في هذه المعارك الطاحنة التي غيّرُوا بها وجه التاريخ وأَذلّواكثيرًا من الشعوب أولي البأس والقوةهو النصر أو الاستشهاد.

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

[1] **الدسوقي، عمر. الفتوة عند العرب. ص 215.**

لقد علمت أفيال مَذْحجَ أنّني أنا الفارس الحامي إذا القوم ضجَّروا

صبرتُ لأهل القادسية مُعْلما ومثلي إذا لم يصبر الناس يصبر

وطاعنتهُم بالرمح حتى تبدّدوا وضاربتهم بالسيف حتّى تكسّروا

بذلك أوصاني أبي وأبو أبي بذلك أوصاني فلستُ أقصّر

حمدت إلهي إذ هدَاني لدينه فللّه أسعى ما حييت وأشكر[1]

وقال أيضا:

رأيت رجالا ناكسين رؤوسهم ولم يكُ رأسي للرجال بناكس

رأوا فارسا كالصَّقر يخطف عندما أمرَّ عليهم كلّ رطب ويابس

ينادي بأعلى الصوت من دعوة له فقلتُ: ومن ذا ؟ قيل جمرة فارس

وأنت أبو ثور؟ فقلتُ اجل أنا هَمامُ وإنّي قائِلٌ للفوارس

ولكنّني شيخٌ وفيَّ بقيّة هي اليوم خيرٌ من شباب ابن جابس

ذروني وذاك الفارسيَّ فإنني سأخطفه خطف العُقَابِ المخالس

فإن بدت كفّيَ إليه بضربةٍ فتلك وربِّ البيت إحدى الدهاريس

وإن بدرت كفَّاه كفّي سُرْعةً فخلُّوا عن الشيخ الكبير الممارس [2]

وقال أيضا:

ألا هل أتاها من نهاوند أنّني أمارسُ أبطالا لها وفيولا

[1] - الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر . فتوح الإسلام ببلاد العجم وخراسان، ص **64**.

[2] – نفس المرجع السابق ، ص **33**.

أمارس فيلا بعد فيل وأنني أكافح فرسانا لها وخيولا

وقال أيضا :

إن الأعاجم عندالحرب قدعرفوا أرباب حرب وأبطالا أباسلا

بالقادسية والاحياء شاهدة ردّت كتائبنا الفرسان والفيلا

ما زال قومي لدى الهيجاء إن حربُ ضروس تراهم نحوها حيلا

من سالموه فإن السلم راحته أو حاربوه فقد يلقى التناكيلا [1]

وقال يحضّ قومه:

أحضِّض قومي باللقاء ومعشري وما زال قومي يخضبون العواليا

وما جاد عن جمعي نهاوند جمعنا وما زال قومي يمنعون المواليا

فإن نلتُ العداة فإنّني لألفى لدى الهيجاء فيها الدواهيا

فيولا لأراها كالجبال أمامها تشيِّب منّا في الحروب النواصيا [2]

وها هو يعبّر عن حسرته لعدم مشاركته في غزوتي" بدر" و"أحُد"فيقول:

فاتنا بدرٌ وأحدٌ وشهدنا القادسية

فآثبتوا للقوم ضربا بسيوف حارثيّة

وارشقوا للقوم رشقا بسهام فارسية

إنما الفضل وربي في نقيص الناشيّة

---

[1] الطرابيشي، مطاع . الشعر. ص **179** .

[2] نفس المرجع السابق. ص ص **181،180**..

إذ يرون الطعن منّا برماح ذا عصيـة

الفتوحات الإسلامية تنطق الشعراء:

رثاء الأعضاء المقطوعة :

أنشدنا أبو عبد الله نفطويه وأبو الحسن الأخفش وأبو بكر بن دريد لعبد الله بن سبرة الحرشي، وكانت قُطِعت يده اليمنى في بعض غزواته الروم فقال يرثيها:

1) ويل أمِّ جار غداة الرّوع فارقني أهون عليّ به إذ بان فانقطعا

2) يُمنى يدي غدت مني مفارقة لم أستطع يوم فلطاس لها تبعا

3) وما ضِننتُ عليها أن أصاحبها لقد حرصت على أن نستريح معا

4) وقائل غاب عن شأني وقائلة هلا اجتنبت عدوّ الله إنصرعا

5) وكيف أركبه يسعى بمنصلة نحوى وأعجز عنه بعد ما وقعا

6) ما كان ذلك يوم الروع من خُلقي ولو تقارب مني الموت فاكتنعا[1]

7) ويل أمّه فارسا أجْلَت عشيرته حامي وقد ضيّعو الأحساب فآرتجعا

8) يمشي إلي مستميت مثله بطل حتّى إذا أمكنا سيفيهما امتضعا[2]

9) كل ينوء بماضي الحدّ ذي شطب حليّ الصياقل عن ذرّية الطّبعا

10) حاسَيتُه الموت حتى اشتفّ آخره فما استكان لما لاقى ولا جزعا

11 كأنّ لمتّه هذّاب [1] مخملة [2] أحمّ أزرق لم يشمط وقد صلعا

12 فإن يكن أطربون [3] الروم قطّعها فقد تركت بها أوصاله قطعا

13 وإن يكن أطربون الروم قطّعها فإن فيها بحمد الله منتفعا

14 بنانتين وجرموز أقيم بها صدر القناة إذا ما آنسوا فزعا

---

[1] – اكتنعا : دنا.

[2] – امتضعا: بعدا.

(1) الهذّاب : الخيوط التي تبقى في طرفي الثوب وعرضه.

(2) مخملة : نشيح له خمل أي وبر.

يد انفصلت عن بقية الجسد ، لكن الإرادة لا تزال فولاذية في مقارعة العدو ، فالروح الإسلامية ثابتة رغم الداء والأعداء .

معركة حامية وحاسمة بين المسلمين والروم ، فقَدَ شاعرنا على إثرها يده ؛ يدُه اليمنى فارقته إلى **الأبد** على يد أطربون الروم ، ولم يستطع اللحاق بها ، وكم تمنى ذلك ، فنفسيته متدفقة للجهاد في سبيل الله ، وكم أبلى بلاء حسنا في هذه المعركة وغيرها ، وركب مخاطرها وأهوالها ، وبقي يطارد عدوّه بسيفه ويسعى وراءه يلاحقه بكل بسالة وإقدام ، ولم يعجز ولم يتوان حتى أشربه كأس المنون ، وقضي عليه نهائيا ، لكن بعد تروّ حزّ في نفسه رؤية يده المقطوعة ، فراح يرثيها بهذه القصيدة ، لكن بمعنويات عالية ، وقلب مفعم بالإيمان وروح أبيّة .

وعند تحليلنا لنفسية هذا الشاعر البطل ، وهو يخوض عباب هذه المعركة نجده صامدا ، فرغم قوة جيش الروم ، وتنظيمه إلا أنّ هذا المجاهد إستطاع بما أُوتِي من قوة الإيمان والجلَد ، أن يتغلب عليه ولكن أثّرت في نفسه، هذه اليد المقطوعة ، وما إعادته لعبارة " وإن يكن أرطبون الروم قطّعها " مرتين ، في صدر البيت الثاني عشر وصدر البيت الثالث عشر ، إلا دلالة صريحة ، وانعكاسا لنفسه المتعبة، القلقة، فاليد المقطوعة عقّدت وعكّرت حياته وتركت في نفسه آثارا لا يمكن للزمن أن يمحوَها .

لذا يحاول – في اعتقادنا – أن يؤاسيَ نفسه، فمرة يقول إن كان هذا الرومي قد قطع لي يدي فقد مزّقتُ له كل أوصاله، ومرة يذكر أنّه رغم هذا القطع فيده لا تزال نافعة، فهي قادرة على حمل السيف لإرهاب العدوّ ، ويحمد الله على ذلك فهو يبحث عما ينفّس به عن نفسه ويروّح عنها، ويهوّن عليها مصيبتها فهو المجاهد الصنديد، الذي لا يهاب ساحات الوغى، فيقدم عليها في غير تهوّر، وهاهو يفقد يده بضربة من فارس رومي شجاع ، وما يثبت نفسيته المتعَبة هو البيت الثالث، حيث يتمنى لو لحق بها، فاسترحا معا، فهذه الراحة التي

---

(3) أطربون : البطريق الرئيس من الروم.

يبحث عنها الشاعر هي راحة نفسية وعضوية وتُظهر مدى شغفه بالإستشهاد في سبيل الله ، ويعذل من تقول له لو تراجعت، فيردّ ماهي من خلقي الفرّ من ساحات الرحى، حتى لو دنا الردى مني ، وكيف أسجّل عجزي، وأنا المقدام البطل الذي أوقعت وأسقطت بسيفي كل فارس تقدم مني ، فطباع العرب متأصلّة فيه، ووشّحتها القيّم الإسلامية النبيلة، فبكاؤه على يده ،صَاحَبته همّة عالية شحنت نفسه، فرغم أنّ الرثاء هو ذكر مناقب الميت والبكاء عليه، إلا أن شاعرنا- في رأينا- قد تجاوز هذا التعريف، ورجّح كفّة الإعتزاز و الإفتخار وعدم الإكتراث بما حصل له على كفّة البكاء على ما ضاع منه ، ونوعز هذا إلى قوّة نفسه وشفاء غليله بالقضاء على أطربون الروم ، فكلّ ما سواه يهون .

قطع الأعضاء :

أعضاء *بُثرت*،أحشاء بُعثرت، أيد وأرجل قُطعت وعيون فُقئت في ساحات الوغى أثناء الفتوحات الإسلامية، بين قعقعة السيوف، ورمي النبال .

فهذا علباء بين جحش العجلي يطعنه أحد جنود الفرس في بطنه ، فتخرج أمعاؤه، فلا يجزع ولا يتردّد، ويرفع بها إلى بطنه ثم يرتجز وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة قائلا :

أرجو من ربّنا ثوابا قد كنت ممّن أحسن الضربا [1]

وهذا عثمان بن مظعون يفقد عينه إثر لطمة من أحد جنود الروم فيقول :

فإن تك عيني في رضا الربِّ نالها يدا ملحد في الدين ليس بمهتد

فقد عوّض الرحمان عنها ثوابه ومن يرضه الرحمان ياقوم يسعد [2]

فهذا المجاهد – رغم ما للعين من قيمة – إلا أنّه غير مبال مادام قد ضحّى بها في سبيل الله، ومادام الذّي نالها ملحد غير مهتد لدين الله ، ويتفاءل هذا المؤمن خيرا ، إذ أن الله عوّضه عنها أجرا وثوابا عظيمين .

وهذا حياض بن قيس القشيرى قطع يده أحد جنود الروم في موقعة اليرموك فقال يرثيها :

أقدم حزام أنها الأساورة لا تغرينكِ رجل نادرة

أنا القشيري أخو المهاجرة أضرب بالسيف رؤوس الكافرة [3]

فهؤلاء البواسل استرخصوا أعضاءهم حواسهم وأحشاءهم في سبيل الله وفي سبيل توسيع رقعة الدولة الإسلامية ونشر الإسلام ورفع رايته والقضاء على الكفر والكفار .

إنّهم شجعان صابرون لا يأفل لهم عزم ، مهتدون، مقبلون غير مدبرين على ميادين الوغى، غير مبالين بما يحدث لهم، نفسيتهم قوية وصارمة، لا تتضعضع أمام هذه الأحداث مهما صعبت، لا تتزلزل عقيدتهم رغم أهوال المعارك وخطورتها، عظُمت قوة الكفاح فيهم ،كما عظُمت ثمرات هذه القوة في نفوسهم، باعوا نفوسهم و أعضاءهم وحواسهم لله سبحانه وتعالى دفاعا وذوْدا عن الإسلام، ومبادئه وهو أقصى ما تصل إليه النفس

---

(1) (2) الطبري بن جرير : تاريخ الأمم والملوك. ج5، ص 2310.

(3) العسقلاني، ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة. ج2. ص 68.

الإنسانية في شجاعتها ، وهو أكبر دليل على إيمان ثابت بمصير النفس وتكريمها، فلا يتصور المرء أن يُطعن الإنسان في بطنه، فيدفع بأحشائه التي خرجت، ويتوسّل إلى ربّه المغفرة والثواب، ثم يموت.

مواقف يعجز اللسان عن التعبير عنها ويجفّ القلم أمام هذه التضحيات ، وتعلو أن يحيط بها أيّ لفظ مهما كان إيحاؤه صادقا وقويا .

وقد استدعى الجهاد مفارقة الرجال لنسائهم، وما يتتبع ذلك من مواقف عاطفية فالزوجة – بطبيعتها – ترغب في بقاء زوجها إلى جانب أسرته، ونداء الإسلام يفرض على زوجها تلبية نداء الواجب الذي فرضه الله على المؤمنين، فقد صوَّر لنا النابغة الجعدي، هذا الشاعر المخضرم، المطبوع، الفصيح، الذي يجري شعره على السليقة من غير تكلّف ولا تعقيد، ما دار بينه وبين زوجته، وقد جزعت بسبب ذهابه في فتوح فارس فيقول:

باتت تذكّرني بالله قاعدة والدمع ينهل من شأنيهما [1] سَبَلا [2]

يا بنت عمي كتاب الله أخرجني كرْها، وهل أمنعنَّ الله ما بذلا

فإن رجعت فربُّ الناس أرجعني وإن لحقت بربي، فآبتغي بدلا

ما كنت أعرج أو أعمى فيعذرني أو ضارعًا [3]من ضنًى لم يستطع حِوَل [4]

---

[1] شأنيهما : الشأن : مجرى الدمع.

[2] سبلا : الدمع الهاطل.

[3] ضارع : نحيل. هزيل

[4] الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ح4، ص 454.

ففي هذه الأبيات، تتحسر الزوجة وتتألم لفراق زوجها، وراحت بدموعها المنهمرة ترجّى زوجها وتقنعه بعدم الخروج إلى الجهاد، تاركًا إياها وراءه، فأرقّها هذا، وباتت قاعدة تذكّره بالله وواجباته اتجاهها، لكن هيهات هيهات مع من روحه متعلقة بخالقها، ترجو ثوابه وجزاءه.

والشاعرالمسلم متأثر –كعادته في شعره – بالقرآن الكريم، لذا نجده يستعمل " كرها " وهو مقتبس من قوله تعالى: **(كتب عليكم القتال فهو كره لكم)** [5]، فآقتباسه من هذه الآية بالذات رغم كثرة الآيات التي تحدثت عن الجهاد، يوحي بنفسيته المتعبة، وفي رأينا أن خروجه للقتال فيه إكراه له، لكنه لا يوّد أن يُمنع أجر الله فيه، لذا فهو يبذل النفس والنفيس لإرضاءه، حتى ينال كرمه، وما هو صاحب عذرحتّى يتوانى ويحتال، فعاطفة الشاعر متذبذبة، ونفسيته منشطرة بين الخروج إلى الجهاد الذي يوجبه كتاب الله، وبين رغبة هذه الزوجة التي تنوح وتبكي عليه، فراح يقنعها بأحكام شرعية حتى يفرّج كربتها ويمسح دمعتها، فتعذره.

وهكذا نجد الشاعر المسلم يعبِّر عن مشاعره وأحاسيسه في المواقف التي تمرّ به، تعبيرًا وجدانيا صادقا يترجم فيه خلجات نفسه من إخلاص لعقيدته وإيمان بما ينتظره من حسن الجزاء، كما صوّر الفروسية الإسلامية والشجاعة السرمدية في أسمى مظاهرها، فجاء شعره سلسلة ملحمية نظّمتها فكرة الجهاد في سبيل الله، والطمع في جنات النعيم، قال نجم بن مفرح يوم هزيمة **اليرموك** [1] :

لله في عرض السموات جنّة ولكنّها محفوفة بالمكاره [2]

---

[5] **سورة البقرة، الآية 216.**

[1] **اليرموك : هو نهر يصب في الأردن وراء بحيرة طبرية وعنده حدثت الواقعة المعروفة التي انتصر فيها العرب على الروم وتم لهم بعدها فتح بلاد الشام.**

[2] [3] **الطبري، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. ج5. ص 238.**

كما قال جندب بن عامر بن الطفيل:

سأبدل مهجتي أبدًا لأ نّي أريد العفو من ربٍّ كريم

وأضرب في العداجهدي بسيفي وأقتل كل جبّار لئيم

فإنّ الخلد في الجنّات حق تباح لكل مقدام سليم [3]

ويُعد – في الوقت ذاته – هذا الشعر وثيقة تاريخية يمكن استقراؤها لتعزيز أو إضعاف الروايات الإخبارية المختلفة في بعض الأحيان، فقد واكب هذا الشعر الفتوحات الإسلامية وسجّل مآثرها.

كان شيبان بن المخبّل التميمي ممّن خرج مع سعد وكان أبوه قد هزم وضعف، وكان يغلب على عقله، فجزع عليه وعمد إلى ماله ليبيعه ويلحق بابنه، فلحقه علقمة بن هودة وقال له: أنا أكلّم عمر في ردّ ابنك.وتوجّه إلى عمر فأنشده قول المخبّل:

أيملكني شيبان في كل ليلة فقلبي من خوف الفراق وجيب

ويخبرني شيبان أن يعقّني تعقّ إذا فارقتني وتحوب

فإن يك غصنّي أصبح اليوم باليا وغصنك من ماء الشباب رطيب

إذا قال صحبي يا ربيع ألا ترى أرى الشخص كالشخصين وهو قريب [1]

فبكى عمر ورقّ له وكتب إلى سعد أن يعيد شيبان، فآنصرف إلى أبيه فكان معه حتى مات.

---

(1)(2) كمال، أحمد عادل. القادسية. ص 50.

وكان كلاب بن أميّة بن الأسكر من بني ليث من كنانة سكن الطائف، فهاجر إلى المدينة في خلافة عمر وأقام بها زمنا ثم لقي طلحة والزبير فسألهما : " أي الأعمال أفضل " ؟ قالا : " الجهاد في سبيل الله " فسأل عمر، فأعزاه مع سعد بن أبي وقاص وخرج معه أخوه أبيّ، وكان أبوهما شريفا في قومه، وقد كبُر وضَعُف فقال :

أعاذلٌ قد عذلت بغير علم وما يدريك ويحك ما ألاقي

فإما كنت عاذلي فردِّي كلابا إذا توجه للعراق

سأستعدي على الفاروق ربآ له رفع الحجيج إلى بساق

إن الفارق لم يردد كلابا إلى شيخين الله هامهما زواقي (2)

ولما طالت غيبة كلاب عاد أبوه يقول :

لمن شيخان قد نشدا كلابا كتاب الله لو قلّ الكتابا

أتاه مهاجران مرنَّخاه عباد الله قد عقّا وخابا

أناديه فيعرض في إباء فلا و أبي كلاب ما أصابا

تركت أباك مرعشة يداه وأمّك ما تسيغ لها شرابا

إذا نعب الحمام ببطن وجٍّ على بيضاته ذكرا كلابا

أبِرًّا بعد ضيعة والديه فلا وأبي كلاب ما أصابا

وإنك والتماس الأجر بعدي كباغي الماء يتبع السرابا (1)

وبعدها أعاد عمر كلاب إلى والديه وقال : يا كلاب ألزم أباك وأمّك ما بقيا.

---

(1) كمال، أحمد عادل. القادسية. ص 51.

عند تحليلنا لهذه الصيحات الدفينة من هذين الأبوين وهما المخبّل التميمي، وأميّة بن الأسكر، نتوصل إلى أن الفراق قد أججّ مشاعر الآباء وأنطقهم شعرًا يفيض شوقا وحزنا، فالمخبّل في أبياته يذكر شيبان مرتين: في البيت الأول والثاني دلالة على مدى تأثرّه بفراق إبنه، ومدى حبه له، ويذكره أنه في أمسّ الحاجة إليه، فعاطفة هذا الأب لم تتوانى عن ذكر شيبان لفلذة كبده وخاصة أن هذا الوالد قد بلغ من الكبر عتيّا إذ قال : " أرى الشخص كالشخصين وهو قريب " دلالة على ضعف بصره، لهرم جسمه، فهذه الأبيات التي أبكت أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، تعتصر ألما لنفسية هذا الشيخ الذي أثقلت الهموم كاهله، وناءت ببنات الدهر أضلعه، فهي متعبة غير قادرة على مواجهة هذا المصاب، نفسية ممزقة، غير هادئة تبحث عن بلسم لجراحها العميقة، فكيف تهنأ نفس ذات انقسام؟ ويهدأ بال في بيت بلا نظام.

وهذا أميّة بن الأسكر، يعاتب العواذل، الذين يلومونه دون علم لما يعاني ويقاسي من ويلات البعد والفراق، ويطلب من عمر ردّ كلاب إلى والديه، لأن كلاّ منهما بلغ منه الضعف والكبر والهرم مبلغا كبيرًا، فحاجة كل منهما إلى من يضفي عليه من الحنان والمودة والقوة ملّحة، فأمٌّ ودَّعت مع ابنها كلَّ لذاتها وأنسها، وأصبحت لا تستسيغ طعامها ولا شرابها، بعد هذا الفراق المحتوم، وأب يداه ترتعشان ضعفا وسقما فأيّ برٍّ من غير أجرهما؟.

ونظرًا لنفسية هذا الأب السقيمة، المتذمرة، المنفجرة سخطا وغضبا وشوقا، فقد ربط من يلتمس الأجر في غير الوالدين بمن يبحث عن الماء، فيتبع السراب دون أن يناله، ولهذه الصورة خلفية إجتماعية، فحاجة القبائل العربية للماء، مصدر رزقهم، ورحلهم وترحالهم بحثا عنه، عمّق في نفوسهم هذه الفكرة، فما وجد هذا الشيخ – في اعتقادنا – تشبيهًا يشفي غليله إلا باغي الماء الذي يتبع السراب وهو هنا متأثر بقوله تعالى:

(والذين كفروا أعمالهم كسراب بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئا، ووجد الله عنده فوفاه حسابه والله سريع الحساب) [1].

فالبيت الأخير يوحي – في اعتقادنا – بترهيب الأب لابنه، فالأجر في رأيه لا يُلتمس إلا بوجوده، فبموته ينقطع، فما عليه إلا العودة إليه سريعا، والتقرب منه، والإحسان إليه حتّى ينال ثوابه.

ومجمل القول حول هذا، فإن أكباد الآباء الذين شقَّ أبناؤهم طريقهم إلى الجهاد في سبيل الفتوحات الإسلامية، قد تفتّت، وقلوبهم اِحترقت صبابة ووجدًا، من أثر النوى والجوى، فلوعة الفراق اتّقدت بين جوانحهم وأفاضت مدامعهم، وأضنت أفئدتهم، فلم يستطع ضعفهم ولا هرمهم تحمّل وتقبّل ذلك، فقلوبهم واجفة، وعيونهم دامعة، فكلّ لفظة هي آهة، وكل عبارة هي أنّة متدفقة من ينبوع الحنان والمحبّة الذي غرسه الله في أفئدتهم، فالمعاناة كانت قاسية ومريرة، والصبر كان قليلا، وفي المقابل واجب الجهاد في سبيل الله، لفتح جديد مبين يصرخ داخل كل ابن، ويدفعه دون تردّد إلى الإبتغاء من فضل الله، لذا – في رأينا – كان الصراع حادًا وجادًا بين هذه العواطف، فكلٌّ مشدود ومتصارع مع عاطفته، الأبناء يشدّهم حبل الجهاد للتقرب من الله، ونيل ثوابه، والآباء تشدهم عاطفة المحبّة والمودّة، والخوف والعجز. فكان الصراع دفينا ومحتدما.

" عندما وجه أبو بكر قواده بجيوش المسلمين لنشر الدين الإسلامي ، وإعلاء رسالة الحق خارج الجزيرة العربية، اِندفعوا جميعا يلبّون نداء ربهم، مزوّدين بطاقة روحية عظيمة أمرهم بها الإيمان، فحبّب إليهم الجهاد وزيّنه في صدورهم، فأصبحت قلوبهم عامرة به " [1] والقرآن الكريم مليء بالآيات التي تدعو إلى الجهاد، وقد أوضحت الأحاديث النبوية أيضا أهميته وفضله.

---

[1] **الآية: 19، سورة النور.**

[1] **الشورى، مصطفى عبد الشافي. شعر الرثاء في صدر الإسلام. ط 1. ص 86.**

هبّ المسلمون إذن حاملين كتاب الله ومتوكلين عليه، موقنين بالنصر أو الشهادة، وقد أسهم الشعراء بدور كبير في هذه الأحداث، وذلك بتحريضهم المؤمنين على الكفاح وإشعال جذوة الشعر الحماسي في نفوسهم، يستحثّونهم على مواصلة الجهاد في سبيل الله.

" وكان شعر الرثاء في معظمه في تلك الفترة يدور حول تمجيد بطولة من استشهدوا في ساحة القتال أو تعديد مآثرهم، والإشادة بمواقفهم، كما عبَّر عن الأسى والحزن لفقدهم " [2].

فهذه خزانة بنت خالد بن جعفر بن قراط التي حضرت فتوح الحيرة، ترثي شهداء المسلمين بقولها:

طوى الدهر ما بيني وبين أحبّة له شبها ما دام لله ساجدًا

فلا يحسب الواشون أن قناتنا تلين ولا أنَّا من الموت نجزع [3]

فهي تظهر فداحة المصيبة التي ألمّت بها، بعد اِستشهاد هؤلاء الأبطال، لقد فقدت بعدهم كلَّ شيء، ومن ثمَّ أصبح لا حول ولا قوة لها، ولكنّها سرعان ما تفيق من ألمها وحزنها، لتظهر أمام الشامتين الحاقدين عليها، بمظهر القوة، وتقرّر أنّها وقومها لا يخافون لموت ولا يجزعون منه، لأنّ قناتهم صلة قوة.

وإذا كان هذا الرثاء قد ساده الحزن والألم، فإنّ روح التسليم بالقضاء والإمتثال لإرادة الله واضحة فيه، لِمَا أعدّه الله للشهداء من جزاء عظيم.

وهذا الحبيب بن ذريح بن الحارث يرثي ولده الذي استشهد في قتال الفرس فيقول:

أبغي الحباب في الجهاد ولا ادري له شبيهًا ما دام لله ساجد

وكان الحباب كالشهاب حياته وكلُّ شهاب لا محالة خامد[1].

---

[2] ينظر. الخضري، محمد بك. تاريخ الأمم الإسلامية. ط2.ص 107.

[3] الشوري، مصطفى عبد الشافي. شعر الرثاء في صدر الإسلام. ط1. ص 87.

فالشاعر مؤمن بقضاء الله وقدره، فقد كان ابنه الذي استشهد شجاعا فارسا لا مثيل له إلى يوم الدّين، وقد أحبّ الجهاد في سبيل الله، وضحَّى بنفسه في سبيل الله، فيعزّي الشاعر نفسه – في رأينا – ويشبهه بالشهاب الذي مهما أضاء، فإنه ينطفئ يوما، فالقوة النفسية عارمة مندفعة بالقوة الإيمانية الصارمة المتغلغلة في فؤاده، وإلا ما صبر على فلذة كبده.

وهذا شاعر آخر يرثي شهداء المسلمين في معركة القادسية الذين دُفِنوا بمشرف:

جزى الله أقواما بجنب مشرف غذاة دعا الرحمن من كان داعيا

جنانا من الفردوس والمنزل الذي يحلّ به الخير من كان باقيا [2]

ولم يُهزم المسلمون أثناء تلك الفتوحات الإسلاميةالتي كانت بينهم وبين الفرس، لإيمانهم القويّ بما ينتظرهم وما وعدهم الله من جنات الفردوس والمنازل الرفيعة التي تعجّ بالخير.

كما رثى الشمرذل أخاه وائل الذي قُتِل في هذه الفتوحات فقال:

لعمري لئن غالت أخي دار فرقة وآب غلينا سيفه وحمائله

وحلّت به أثقالها الأرض وانتهى بمثواه منها وهو عف مآكله

لقد ضمنت جلدالقوبكان يتقى به، جانب الثغر المخوف زلازله

أقول وقد رحلت عنه فأسرعت علي بأخبار اليقين محاصله

وتحقيق رؤيا في المنام رأيتها فكان اخي رمحا ترفض عامله

يسقى حدثا أعراف غزة دونه بجيشه ديمات الربيع ووابله[1]

---

[1] الشورى، مصطفى عبد الشافي. شعر الرثاء في صدر الإسلام.ص 88.

[2] الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج4. ص 539.

فالشاعر يندب حظه التعس لفقد أخيه، ويصف خلجات نفسه بما فيها من حزن دفين ومرارة كامنة ومع ذلك فهو مستسلم لقضاء الله، صابر على ما ابتلاه به، وما رثاؤه هذا إلا تنفسيا عن الحرقة التي اِكتوى بها، واللهيب العاطفي المتأجّج في أعماقه، فحبه لأخيه تصادم مع وَرَعِه وتقاه، فراح يضمد جراحه بالتأسّي وذكر المناقب الحسنة لأخيه كالعفّة، والتقوى والشجاعة.

ورغم قلة الرجز في الرثاء، فإن الأعور اين قطبة ينتابه شعوران متضاربان في الوقت نفسه، هما الفرح والحزن، فهو فرح لأن أخاه قد قتل قائدًا من قواد الفرس، وهذا بلاء حسن عظيم، ولكنه حزين لأن هذا القائد قبل أن يسقط، استطاع أن يقضي على أخيه البطل، فهو متألم لفقدان أخيه، ولكن عزاءه، أنّ أخاه قد أدى واجبه قبل استشهاده فيقول في رثاء أخيه الذي قُتل يوم أغواث:

لم أر ما كان أحلى وأمرّ من يوم أغواث إذا افترّ الثغر

من غير ضحك كان أسوئ وأمرّ [1]

وهذا نهارين توسعة يرثي أخاله يدعى عثبان فيقول:

عتبان قد كنت امرءًا لي جانب حتّى رزئتك والحدود تضعضع

قد كنت أعوس في المقامة سادرًا فنظرت قصدي واستقام الأخدع

وفقدت إخوتي الذين بعيشهم قد كنت أعطي ما أشاء وأمنع

فلمن أقول إذا تلمّ ملمّة أرني برأيك لمّ، إلى من أفزع؟

وليأتين عليك يوم مرة يبكي عليك مقنعا لا تسمع [2]

---

[1] الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج 4، ص 590

فمصيبة الشاعر فادحة بعد أن فقد أخاه، وأصبح وحيدًا عاجزًا لا حول ولا قوّة له، وتبدّلت حاله من قوّة ومنَعة إلى ضعف واِستكانة، ومن ثمَّ فهو يبكي على فقدان أخيه الذي كان سَنَدًا قويّا له، يلمّ إليه في الأرزاء، وعند المحن، ونستشفّ من خلال أبياته، أنّه فقد إخوانا آخرين أيضا كان بفضلهم سيّدًا في قومه، أمّا اليوم وقد اِنكسر عوده، فلا يجد إلا دموعا ساخنة يريح بها نفسه من هذا العذاب.

وهذا ابو عامر بن غيلان يُرثي ولده الذي خرج غازيا ومات من طاعون " عمواس " فيقول:

عينّي تجود بدمعها الهتّان سحّاوتبكي فارس الفرسان

لو أستطيع جعلت منّي عامرا تحت الضلوع وكلّ حيّ فانٍ [1]

الشاعر في هذين البيتين، يبيّن مدى وجده وحزنه وحسرته لفقده إبنه، ويصف عينه التي تجود بدموعها وتسحّ على بطل الأبطال، الفارس الشجاع، الغازي في سيل الله.

ويتمنّى لو يستطيع أن يفديَه بنفسه ويقيَه من الموت أو يخفيَه بين ضلوعه حتّى لا يدركه الموت لكنْ هيهات هيهات، إنّها كأس كلّ حيّ شارب منها، لذلك يستدرك ويقتبس من القرآن الكريم قوله تعال:"كل من عليها فان " فيقول " كل حيّ فانٍ " .

---

[1] المسعودي، أبو الحسن. مروج الذهب. ج2، ص 206.

[2] الشوري، عبد الشافي، مصطفى. الرثاء في صدر الإسلام. ط1، ص 92.

[1] العسقلاني، ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة. ج2، ص 92.

وخلاصة القول في هذا الموضوع، أنّ الأصوات قد اِرتفعت بالعويل والبكاء على موت الإخوة والأبناء الذين شاركوا في الفتوحات الإسلامية، وخرجوا مجاهدين إلى ديار غير ديارهم، حاملين لواء نشر الإسلام، فانتشرت الأصوات تمتلئ بالغصص والآلام، وتئنّ وتتوجّع، ووراء الأنين والبكاء حرقة الوجد وألم الفقد، وحرارة التفجّع، وكثيرا ما نجد الشعراء يعزّون أنفسهم في مراثيهم إزاء من يفقدونهم من الأبناء والإخوة ،بأن الموت حقّ لا مفرّ منه.

إذا كان بعض الآباء قد تقرّحت عيونهم ووجفت قلوبهم حزنا على فراق قرات أعينهم، ولم يطيقوا بعادهم، وراحوا يطلقون زفرات ساخنة، وآهات تلين لها الأفئدة القاسية مثلما سنرى في الفصل الثالي، فإنّ هناك من القلوب المطمئنة، الثابتة، المفعمة بالإيمان، القوية، كقلب الخنساء التي عُرفت بشاعرة البكاء والنحيب في الجاهلية، نجدها في حرب **القادسية** [1]، وتزفّ أبناءها الأربعة قربانًا لله سبحانه وتعالى، ولا تبالي، وتعمّها فرحة كبيرة لإستشهادهم، وتدعو الله اللحاق بهم. فتنصحهم قبل خروجهم للجهاد قائلة:

" **يا بني إنكم أسلمتم طائعين وهاجرتم مختارين، ووالله الذي لا إله إلا هو، إنّكم لبنو رجل واحد، كما أنّكم بنو امرأة واحدة، ما خُنت أباكم ولا فضحتُ أخوالكم، ولا هَجَّنت حسبكم ولا غيّرت نسبكم، وقد تعلمون ما أعدَّ الله للمسلمين من الثواب الجزيل في حرب الكافرين، واعلموا أن الدار الباقية خير من الدار الفانية**. يقول الله تعالى:

(يا أيّها الذين آمنوا، اصبروا وصابروا ورابطوا واتقّوا الله، لعلّكم تفلحون) [2]

---

[1] القادسية: موقع في العراق، حدثت فيه المعركة الكبرى بين المسلمين بقيادة سعد بن أبي وقاص والفرس بقيادة رستم، فانتصر المسلمون وكان ذلك سنة **14**هـ، الموافق **635**م.

[2] سورة آل عمران: الآية **200**.

فإن أصبحتم غدًا إن شاء الله سالمين فاغدوا إلى قتال عدوّكم، مستبصرين، وبالله على أعدائكم مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد شمّرت عن ساقها، فتيمّموا وطيسها، وجالدوا رسيسها تظفروا بالغنى والكرامة في دار الخلد والمقامة" [3]، فيخرج بنوها، قابلين للنصيحة، مرددين قول أمهم، عازمين على تحقيق آمالها، فضاغوا نصيحتها أنشودة شعرية رائعة أخذوا يردّدونها في ساحة معركة القادسية، فأخذوا مواقعهم القتالية وأنشأ أوّلهم يقول:

يا إخوتي إن العجوز الناصحة قد نصحتنا إذ دعتنا البارحة

مقالة ذات بيان واضحة فباكروا الحرب الضروس الكالحة

وإنما تلقون عند الصائحة من آل ساسان الكلاب النابحة

قد أيقنوا منكم بوقع الجائحة وأنتم بين حياة صالحة

أو ميتة تورث غنمًا رابحة [1]

وتقدم فقاتل حتى قُتِل، فحمل الثاني وهو يقول:

إن العجوز ذات حزم وجلد والنظر الأوفق والرأي السَّدد

قد أمرتنا بالسداد والرشد نصيحة منها و برٌّ بالولد

فباكروا الحرب حماة في العدد إمّا الفوز بارد على الكبد

أو ميتة تورّثكم عزّ الأبد في جنّة الفردوس والعيش الرغد [2]

وقاتل حتى قُتِل واستشهد وحمل الثالث وهو يقول:

---

[3] معروف، نايف. الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين. ط1، ص 212.

[1][2] [3] علام، علي أحمد. شعراء الفرسان تحت راية الإسلام. ص ص 294-295.

والله لا نعصي العجوز حرفا قد أمرتنا حربا وعطفا

نصحًا وبرًّا صادقا ولطفا فبادروا الحرب الضروس زحفا

حتى تلفوا آل كسرى لفا أو يَكشفوكم عن حماكم كشفا

إنا نرى التقصير عنكم ضعفا والقتل فيكم نجدة وزلفى [3]

فقاتل حتى استشهد وحمل الرابع وهو يقول:

لست لخنساءولاللأخرم ولا لعمرو ذي السناء الأقدم

إن لم أرد في الجيش جيش الأعجم ماضٍ على الهول خضم خضرم

إمّا لفوز عاجل ومغنم أو لوفاةٍ في السبيل الأكرم [1]

فقاتل حتى استشهد وبلغ الخنساء خبر بنيها الأربعة وهم عبد الله، يزيد، معاوية وحرب فقالت " الحمد لله الذي شرفّني بقتلهم، وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقرّ رحمته ".

فمن هيَ الخنساء؟ هي تماضر بنت عمرو بن الشريد السّليمة، أشعر النساء وأرثاهن، قومها (بنو سليم) من أشهر قبائل مضر جاهلية وإسلاما، نشأت في بيت جاه ومجد وسيادة، وفي العام الثامن للهجرة عند فتح مكة أسلمت مع وفد قومها، وشهدت حرب القادسية مع أبنائها الأربعة السابق ذكرهم.بكت الخنساء بكاءً مرًّا على أخيها صخر، قبل إسلامها، وسالت قريحتها شعرًا عذبا حزينا، ووصل بها الأسى والقنوط إلى قولها:

---

[1] القرطبي، ابن عبد الله. الاستيعاب في معرفة الأصحاب. ص 845.

ولو كثرة الباكين حولي على إخوانهم لقتلت نفسي

فقد ودّعت يوم فراق صخر أبي حسان لذاتي وأنسي

لكن بعد حضورها بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم وإسلامها، تغيّرت حياتها، وحالها، وأفكارها، وقدّمت أبناءها الأربعة، لله سبحانه وتعالى، وتمنت لهم الشهادة، فكان لهم ذلك.

وعند تحليلنا لنفسيتها، نجد أن الإسلام أفرغها من الكفر ومقوّماته، وأفعم نفسها بالتقوى وتفضيل الآخرة على الدنيا، فهذه المرأة التي كادت أن تقتل نفسها على فراق شقيقها، أنيس وحدتها، نجدها لما استقرّ الإيمان بين جوانحها، وثبت الإسلام في قلبها، وأيقنت قيمة الإستشهاد في سبيل الله، واقتنعت بأنّ هذه الدنيا لعب ولهو، وما الحياة الباقية إلاالدار الآخرة، فوهبت فلذات أكبادها هبة لله سبحانه وتعالى، وطالبتهم بأنّ يكونوا في الصفوف الأولى، حتى ينالوا الأجر كاملا.

فالعقيدة الإسلامية السمحة، ليّنت سريرتها، وقوّمت سلوكها، وأذابت جليد الكفر والجاهلية الذي كان رائنا على قلبها وفؤادها.

أما عمّا أنشده أبناؤها الأبطال البواسل في ساحات القتال، فينمّ عن إيمان عميق وعقيدة راسخة في صدورهم، وطاعة عمياء لأمهم.

فبرّهم بوالدتهم، وتغلغل حب الجهاد في نفوسهم، وتوْقهم إلى الإستشهاد في سبيل الله، شوّقهم إلى لقاء ربهم والظفر بالفردوس الأعلى، تلك هي سمات شخصية كلّ واحد منهم، وما اِعتور نفسية كلّ واحد منهم، كما نلاحظ أيضا شدة حقدهم على آل ساسان والرغبة الملحّة في البطش بهم، والقضاء عليهم، وخوض خضمّ حروبهم، فشبّههم الإبن الأول بالكلاب النابحة لمدى كرهه لهم، واحتقارهم، وأمرهم آخر بسحقهم سحقا وطلب

الثالث أن يهوّلوهم تهويلا، فما رددوه من أناشيد إلا ما تهفو إليه نفوسهم، ومقتنعة به قلوبهم وتصبو إليه أرواحهم الغالية المطمئنة الطاهرة.

الفصل الثالث

الأثر النفسي للفتوح الإسلاميةفي الشعر العربي

- الشعور بالغربة وأثره في الشعر
- الحنين إلى الوطن والأهل وأثره في الشعر
- مظاهر البيئة الجديدة وأثرها في الشعر

الشعور بالغربة وأثره في الشعر:

موضوع الغربة باب رائع وممتع من أبواب الشعر الإسلامي ذلك أنه يلتف في نطاق وجداني رقيق، تنسكب فيه أعمق المشاعر العاطفية في تدفق وحرارة وصدق.

وهذا شاعر يحن إلى نجد فيقول:

خليلي هل بالشام عين حزينة تبكي على نجد لعلي أعينها

وهل بائع نفسًا بنفس أو الأسى إليها فأخلاها بذاك حنينها

وأسلمها الباكون إلا حمامة مطوقة قد بان عنها قرينها

تجاوبها أخرى على خيزرانة يكاد يدينها من الأرض لينها

نظرت بعيني مؤسين فلم أكد أرى من سهيل نظرة أستبينها

فكذبت نفسي ثم راجعت نظرة فهيج لي شوقالنجد يقينها [1]

فهذا الشاعر يخاطب صديقه، ويسأل هل هناك عين حزينة دامعة على نجد بالشام حتى أعينها على البكاء، فتشوقه لمسقط رأسه نجد وحنينه إليه، جعله يبحث عن محزون ويندب نجد، فلم يجد أمامه إلا حمامة بَعُد عنها قرينها، تعاني وتقاسي ألم الهجر، وليس بجنبها إلا رفيقة أخرى على غصنها، فرمقها الشاعر بعين الصبر والتأسي لأن حالهما كحاله، بعيد عن أهله وذويه في هذه القفار، يجابه مخاطرها وأهوالها، حروبها ومعاركها، ويعزي ما تتلهف نفسه إليه وهو البحث عن " سهيل " النجم الذي يُرى بالشام، علّه يريحه

[1] **الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج4، ص 748.**

من هذا التدمر والعذاب، فهو رمز وطنه الحبيب، لكن هيهات أن يراه من هنا، فراجع نفسه، وكذَّب خلجاتها لكن الأمل باقٍ، فأعاد الكرّة مرة أخرى، وراح يرمقه، ونفسه تحدثه بوجوده، وتهيِّج فيه أحاسيس وعواطف الشوق إلى محبوبته نجد.

فكل ما في هذه الأبيات يبكي، عيون دامعة، وقلوب واجفة، الشاعر يبكي ويبحث عمّن يبكي من أهل الشام على نجد، ويفرغ ما في جعبته من أشجان على الحوار الصامت للحمام، فالحمام على أيكه ينوح ويندب حاله، لفقدان قرينه، وما اختيار الشاعر لهذه الطيور التي ذكرت كثيرًا في الشعر العربي، كرمز للسلام وحاملة للكلام بين الخلان، إلا لما بينهما من أوجه التشابه كالوحدة وبعد القرين، والهجرة والحزن، وإذا ما تتبعنا حالة الشاعر الوجدانية، وجدنا معاناته قاسية، فالألفاظ التي تترجم نفسيته كلها محمّلة بالأشواق والحنين، والغربة والأنين مثل عين حزينة تبكي – الأسى – حنينها- الباكون – بان – هيّج – شوقا – الخ.

هذه هي حال الشعراء أثناء الفتوحات الإسلامية، قلوبهم تعتصر دَمعا وشوقا، وعواطفهم تتأجج حرقة، وألمًا لشعورهم العميق بالغربة ومن يجسّد هذه المعاني، المجاهد البطل المأسور عند الروم، بأرض " أنطاكية " ضرار بن الأزور.

أسرار ضرار بن الأزور :

"حدثني جابر بن عمران الدوسي ونحن في أرض يقال لها البلاظ، إذ جاء معد بن أوس من آل مخزوم، ولقد تركه أبو عبيدة في المقدمة، فجاء برجل من الروم، فقال لأبي عبيدة، خذ هذا إليك، فهو يزعم أنه رسول، فاستخبره أبو عبيدة في السّر، فقال أنا رسول معي كتاب، فقال ممّن؟ فقال من يوقنا ومن أسير لكم بأنطاكية يقال له ضرار بن الأزور، فأخذ أبو عبيدة الكتاب وقرأه، فبكى مَن حوله من أبيات ضرار وبلغ الخبر أخته فأتت إلى أبي عبيدة وقالت: " إنّا لله راجعون ولا حول ولا قوة إلا بالله ". فوا الله لآخذن بثأره

إن شاء الله تعالى، يا ابن أمي ليت شعري في السلاسل أوثقوه، أم بالحديد قيّدوه، أم في البيداء طرحوه، أم بدمائك خضبوه [1]وأنشدت تقول أبياتا أبرزت فيها عاطفتها إتجاه أخيها ، وسنوردها بعد أن نستعرض ونحلل قصيدة هذا البطل المجاهد ضرار بن الأزور الذي يقول فيها:

ولا ضاع عند الله ما تصنعانه فقد خفَّ عني ما وجدت من الضر

بصنعكما لي نلت خيرًا وراحة كذلك فعل الخير بين الورى يجري

ومابي وأيِّم الله موتى وإنما تركت عجوزًا في المهامة والقفر

ضعيفة حال مالها من جلادة على نائبات الحادثات التي تجري

تعودها حب القفار مقيمة على الشيح والقيصوم والنبت والزهر

وكنت لها ركنا تعدّ رحاله وأكرمها جهدي وإن مسني فقري

وأطعمها من صيد كفى أرانبا من الوحش واليربوع والظبي والصقر

من الضبِّ والغزلان والبهت بعد مع البقر الوحش المقيمات في البّر

وأحمي حماها أن تضام ولم أزل لها ناصرًا في موقف الخير والشرّ

وأنّي أردت الله لا شيء غيره وجاهدت جيش الملاعين بالسمر

وأرضيت خير الخلق أعني محمدا لعلي أنال الفوز في موقف الحشر

فمن خاف يوم الحشر أرى إلهه وقاتل عباد الصليب بني الكفر

كذا جلبت يوم الحرب في كل كافر وجندلته بالطعن في الكرّ والفر

---

[1] العسقلاني، ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة. ط1، ج1، ص 285.

تقول وقد حان الفراق لحينه ألا يا أخي مالي على البين من صبر

ألا يا أخي هذا الفراق فمن لنا بحسن رجوع قادم منك بالبشر

إذا سافر الإنسان عن أرض أهله فإما رجوع أو هلاك مدى الدهر

ألا بلغّاها عن أخيها تحيّة وقولا غريب مات في قبضة الكفر

جريح طريح بالسيوف مشرّح على نصرة الإسلام والطاهر الطهر

ألا يا حمامات الأراك تحملي رسالة صبٍّ لا يفيق من السكر

حمائم نجد اسمعي قول شائق إلى عسكر الإسلام والسادة الغرّ

وقولي ضرار في القيود مكبّل بعيد عن الأوطان في بلد وعر

حمائم نجد عددي عند موطني وقولي ضرار قد يحن إلى الوكر

وقولي لهم أني أسير مقيّد له علّة بين الجوانح والصدر

له من عداد العمْر عشر وسبعة وواحدة عند الحساب بلا نكر

وفي خدّه خال محته مدامع على فقد أوطان وكسر بلا جبر

مضى سائرًا يبغي الجهاد تطوعا فوافاه أبناء اللئام على غدر

ألا فانعتاني بارك الله فيكما ألا واكتبا هذا الغريب على قبري

ألا يا حمامات الحطيم وزمزم ألا خبرا أمي ودلا على أمري

عسى تسمح الأيام منا بزورة لقلب غريب لا يرام من الفكر[1]

[1] العسقلاني ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة. ط1. ج 3– 4. ص ص286 –288.

قصيدة من أروع ما قيل – في رأينا – في الأدب العربي، سجلها ضرار في السجل الذهبي للتاريخ الإسلامي، أبيات يندى لها الجبين، ويعتصرها لها القلب ألما ودما، كل لفظة فيها أنّه دفينة، وكل عبارة آهة حزينة، عواطفه كالسيل الجارف، كالبحر الدافق لا حدود له، ألحان شجيّة على قيثارة الأسر والموت، جراح لا تندمل وأسر لا يُنسى، شاب في مقتبل العمر هبّت به ريّاح الجهاد في سبيل الله إلى جهة العدو فوقع أسيرًا، في حوزته فانحدرت دموع مترقرقة من عينيه على حاله، وما آل إليه، وحال أمه العجوز الوحيدة، لأنه كان رفيق دربها، وبلسم جراحها، ومؤنس وحشتها، وحامي حِماها، كما تذكر أخته ساعة الفراق، لما كان على أهبة مغادرة أهله للإلتحاق بإخوانه المجاهدين في جبهات القتال، هذه الأخت التي لم تكن على البين صابرة ولا على الفراق قادرة، فبلّغها تحية عطرة مفعمة بالحزن والأسى على هذا الفراق المحتوم، ثم حمّل حمامات نجد بتبليغ رسالته إلى إخوانه المسلمين، وكم حزَّ في نفسه رؤية السلاسل والقيود تكبله، وهو غريب عن وطنه، ودموعه تنهمر كالمطر، ويطالب ممّن يدفنه بعد موته أن يكتب " غريب " على قبره، لأنه غريب عن هذه الديار التي حلّ بها فاتحا فقط، وما يرجوه هو أن تلف الأيام وتسمح لحبيب بزيارته.

وعند تحليلنا لنفسية هذا البطل الشجاع المجاهد، نجده – في رأينا – قد ضعف وخارت قواه لِمَا أصابه في هذا الأسر، وقد يعود هذا لصغر سنه، فهو صاحب الثامنة عشر ربيعا، فهو كالقضيب الغض، لم يقوَ بعد على مواجهة عواصف الزمن وأهواله، لذا نجده يبكي من ألم الفراق والغربة والأسر والخوف من القتل، فكلّ هذه العواصف والعواطف هبت على وجدانه، فسخرها ومزج بينها في هذه القصيدة، هذه السنفونية الأليمة الخالدة التي عزفت ألحانها ألفاظ وعبارات مثقلة بهموم الأسر، ناقمة عليه، ومع ذلك فالخيط الإسلامي الإيماني بقي محافظا على وتيرته من بداية النص إلى آخره، ففي البيت العاشر يجزم بأن جهاده في سبيل الله، وفي البيت الذي يليه يبيّن أن هدفه هو إرضاء خير الخلق محمد صلى الله عليه وسلم للفوز بشفاعته يوم الحشر.

وفي البيت الثاني عشر يصف رهبته وجزعه من يوم الحشر، وما جهاده إلا مطيّة للظفر بالجنّة، فابتغاء الجهاد عنده تطوع عن رغبة ملحّة داخلية دفعته إليها دون إحجام ولا تردد، فقوته الإيمانية صارمة.

وإذا ما حللنا عباراته ،كقوله " غريب كئيب وهو في ذلة الأسر" نجدها توحي بالغربة والكآبة ومذلة الأسر، فهذه الوجدانيات نسجت خيوطها نفسيته الأبيّة فأذّلتها، وأضعفت حزمها، وذكّرتها بأحبابها فأبكتها، فذكر أمه البائسة اليائسة، في القفار الصعبة، تلوك أحلامها، وأخت حنون أذبلها الفراق وأضناها، تصادق أحزانها، فنار اليأس والشجون ملتهبة في أحشائه جعلته يخاطب كل من يوصل خطابه، فكرر " حمامات " أربع مرات دلالة على مدى الحرقة النفسية التي اكتوى بها، ويعانيها، ويتمنى لو يقاسمه فيها أقرباؤه المقربون –والحمام عند العرب رسل وديعة وفيّة بين الأحباب والخلان –، أو يخرجونه من هذا المأزق الرهيب البائس فهو كالطائر المقطوع الجناح ، النازح عن أهله وأمه.

ومما يمكن أن نستشفه من هذه القصيدة أيضا هو أنه استطاع أن يحيل الحمام إلى كائن يعيش في أعماقه يتجاوب معه ويسهم إسهاما فعالا في التخفيف من آلامه أو على الأقل في إفراغ تلك الآلام من خلاياها فكأنها تشير بالدرجة الأولى إلى معاني الأنثى، كما استقرت في أعماق نفسه، وهي تؤكد أيضا طبيعة العواطف الجياشة التي يحملها اتجاه هذا العالم الخاص للحمامة في أعماقه، وبينها حرة طليقة على أغصانها، وما يلاحظ –في اعتقادنا– أنه عاش التجربة وتروّى بمآسيها فعالجها بكل ذكاء وأناة وروّية ، فأخرجها في قالب فني جميل قلبا قالبا، وما زاد في روعتها ، هو بحر الطويل الذي يتطلب نفَسا متواصلا من الشاعر.

وعلى هذا النهج استطاع الشاعر أن يستغّل حقه في قضية الإختيار من ألفاظ وعبارات وأفكار وأسلوب وبحر، كما حافظ على الخيط النفسي الأليم من بداية النص إلى آخره.

بعد أن سمعت أخته خوله بنت الأزو هذه الصيحة المدوّية في قلبها الكئيب –كما سبق ذكره – ثارت ثورتها وتحركت نخوتها، وراحت بدموعها الساخنة تخط ما أملته عليها عاطفة الأخوة النبيلة الطاهرة ، فقالت:

ألا مخبر بعد الفراق يخبر نا فمن ذا الذي ياقوم أشغلكم عنّا

فلو كنت أدري أنه آخر اللقا لكنا وقفنا للوداع وودعنا

ألا يا غراب البين هل أنت مخبري فهل بقدوم الغائبين تشيرنا

لقد كانت الأيام تزهو لقربهم وكنا بهم نزهو وكانوا كما كنا

ألا قائل النوى ما أمرّه وأقبحه ماذا يريد النوى منا

ذكرت ليالي الجمع كنا سوية ففرقنا ريب الزمان وشتتنا

لئن رجعوا يوما إلى دار عزهم لقمنا خفافا للمطايا و قبلنا

ولم أنس إذ قالوا ضرار مقيّد تركناه في دار العدوّ و يممّنا

فما هذه الأيام إلا معارة وما نحن إلا مثل لفظ بلا معني

أرى القلب لا يختار في الناس غيرهم إذ ما ذكرهم ذاكر قلبي المضني

سلام على الأحباب في كل ساعة وإن بعدوا عنا وإن منعوا منّا [1].

وقالت أيضا في حرقتها على أسر أخيها :

أبعد أخي يلد الغمض عيني فكيف ينام مقروح الجفون

[1] الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر. فتوح الشام. ص 285.

سأبكي ما حييب على شقيق أعزّ عليّ من عيني اليمين

فلو أنّي لحقت به قتيلا لهان على إذ هو غير هون

وكنت إلى السلو أرى طريقا وأعلق منه بالحبل المكين

وإنّا معشر من مات منا فليس يموت موت المسكين

وأنّي أن يقال مضى ضرار لباكية بمنسجم هتون

وقالوا كم بكاؤك قلت مهلا أما أبكي وقد قطعوا وتيني [1]

وممن احترق بنار الأسر أيضا مزروعة بنت عملوق الحميرية وكانت من فصحاء زمانها ، وكان ولدها صابربن أوس فيمن أسر مع ضرار فجعلت تندب ولدها وتقول :

أيا ولدي قد زاد قلبي تلهبا وقد أحرقت مني الخدود والمدامع

وقد أضرمت نار المصيبة شعلة وقد حميت مني الحشا الأصنالع

واسأل عنك الركب كي يخبروننني بحالك كيما تستكن المدامع

فلم يكن فيهم مخبر عنك صادقا ولا منهم من قال أنك راجع

وفكري مقسوم وعقلي موله ودمعي مسفوح وداري بلاقع

فإن تك حيا صمت لله حجة وإن تكن الأخرى فيما العبد صانع [2].

وفي موضوع الغربة أيضا يقول مالك بن الرّيب :

(1) (2) الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر . فتوح الشام . ص 286.

ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماشي الركاب لياليا

لقدكان في أهل الغضا. لودنا الغضا مزارٌ. ولكن الغضا ليس دايا

ألم ترني بعث الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش بن عفان غازيا

دعاني الهوى من أهل ودّي وصحبتي بذي الطّبسين [1]، فالتفتّ ورائيا

أجبت الهوى لما دعاني بزفرة تقنّعت منها، أن أُلام ردائيا

لعمري لئن غالت خراسان هامتي لقدكنت عن بابي خراسان نائيا

فلله درّي يوم أترك طائعا بنيّ بأعلى الرّقمتين [2] وماليا

ودرُّ الظباءِ السانحات عشيّةً يخبرن أنّي هالك من ورائيا

وَدَرُّ كبيريّ اللذين كلاهما عليّ شقيقٌ ناصح قد نهانيا

ودرُّ الهوى من حيث يدعو صحابه ودرُّ لجاجاتي ودرُّ انتهائيا

تذكرت من يبكي عليّ، فلم أجد سوى السيف والرمح الرُّدينيّ باكيا

وأشقر خنذيدٍ [3] يجُرُّ عنانه إلى الماء لم يترك له الدهرلا ساقيا

ولكن بأطراف السمينة [1] نسوة عزيز عليهن ، العشيّة، مابيا

---

[1] الطّبسان : كورتان بخراسان

[2] الرّقمتان : موضع بين البصرة والبناج، كان فيه منزل الشاعر.

[3] الخنديد : الجواد الكريم الأصل.

صريع على أيدي الرجال بقفرةٍ يسووون قبري حيث جُمَّ قضائيا

ولما تراءت عند مروٍ منيّتي وحلّ بها جسمي وحانت وفاتيا

أقول لأصحابي إرفعوني لأنني يقرّ بعيني أن سُهيل [2] بداليا

فياصاحبي رحلي إن دنا الموت فآنز لابرابية إني مقيم لياليا

أفيما عليّ اليوم أو بعض ليلة ولا يعجلاني وقد تبيّن مابيا

وقوما إذا ماستُل روحي وهيّئا لي القبرَ والأكفان، ثم ابكيا ليا

وخطّا بأطراف الأسنة مضجعي وردّا على عينيّ فضل ردائيا

ولا تحسداني بارك الله فيكما من الأرض ذات العرض أو توسعاليا

خذاني فجرّاني ببردي إليكما فقد كنت قبل اليوم صعبا قياديا

وقد كنت عطافا إذا الخيل أدبرت سريعا إلى الهيجان إلى من دعانيا

وقد كنت حيّارا عن القرن في الوغى وعن شتمي أبن العمّ والجار وانيا

فطورا تراني في ظلال ونعمة وطورا تراني والعتاق ركابيا

ويوما تراني في رحى مستديرة تخرّق أطراف الرماح ثيابيا

وقوما على بئر الشبيك [3] فآسمعا لها الوحش والبيض الحسان الروانيا [4]

بأنكما خلفتماني بقفرة تهيل عليَّ الريحُ فيها السوافيا

---

(1) السمينة : بئر قريبة من الواد.

(2) سهيل : نجم يطلع من جهة اليمن، والشاعر يماني.

(3) الشيك : موضع في بلاد بني مازن.

(4) الرّوانيا : الناظرات بعطف وحنان..

ولا تنسيا عهدي خليليّ إني تقطع أوصالي وتبلي عظاميا

يقولون لا تبعد وهم يدفنوني وأين مكان البعد إلا مكانيا

غذاة غذٍ يالهف نفسي على غذٍ إذا أدلجوا عني وخلّفت ثاويا

ويا ليت شعْري يصل بكتب أم مالك كما كنت لوعالوا نعيّك باكيا

إذا متُّ فأعتادي القبور و سلِّمي على الريم [1] أسقيت الغمام الغواديا

تريْ جدتا قد جرّت الريح فوقه غبار كلون القسطلاني [2] هابيا [3]

رهينة أحجار وترب تضمنت قرارتها مني العظام البواليا

فياصاحبا إمّا عرضت فبلغن بني مالك والرّيب أن لا تلاقيا

وبلغ أخي عمران بردي ومئزري وبلّغ عجوزي اليوم أن لا تدانيا

وسلّم على شيخي مني كليهما وبلّغ كثيرا وابن عمي وخاليا

وتطلّ قلوصي في الرّكاب فإنها سَتُغلق أكبادًا وتبكي بواكيا

أقلبّ طرفي فوق رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا

---

[1] الرّيم : القبر.

[2] القسطلاني : جمرة الشفق

[3] هابيا : منثر في الجوّ.

وبالرمل مني نسوة لو شهدنني بكين وفَدَيْن الطبيب المداويا

فمنهن أمي، وابنتاها وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا [1]

فصاحب هذه المطولة هو " مالك بن الريّب التميمي ، شاعر إسلامي " ذهب في صحبة سعيد بن عثمان بن عفان فاتحا ، حينما سار بجنده في طريق فارس ، حتى إذا أناخ الركب في بعض المنازل ، نزل مالك للقيلولة ولما همّوا بالرحيل ، أراد أن يلبس خفه ، فلسعته أفعى كانت قد اندسّت [2] ، فأنشأ يرثي نفسه لما أحس بالموت ، وقرب نهايته ، بعد أن يحدثنا عن انتقاله من الضلالة إلى الهدى ، والتحاقه بجيش المسلمين ، إذ يتذكر أهله وعياله ، فلا يجد ما يبكي عليه سوى سيفه ورمحه هذه المرتبة تمثل إنسانية الإنسان في مواقف الغربة و الافتراق الذي لا لقاء بعده ، بعد أن اختار الهدى على الضلالة ، لما ينتظره من أجر عظيم في الآخرة وهذا هو العزاء الأكبر فيقول :

ألا ليت شعري هل أبيتن ليلة بجنب الغضا أزجي القلاص النواجيا

فليت الغضا لم يقطع الركب عرضه وليت الغضا ماش الركاب لياليا

إن أول ما يستوقفنا ونحن نتمعن هذه القصيدة ،بدايتها فهذا الاستخدام المتكرر لكمة (الغضا) إشارة نصيّة معلنة بشكل ظاهر ، فقدا تخذ الشاعر من الغضا بوابة يدخل من خلالها إلى عالم الشوق الذي يحن إليه ،وهو يدرك أن هذا الأمل يستحيل تحقيقه، ولذا يطلق حرف التمني "ليت" ليعبر عن آهة الحزن العميق الذي يستحوذ على نفسه ، وهو يصرّح بهذه الأمنية ، يحاول التعبير عما يحس به من ألم البعد والفراق ، –وفي اعتقادنا –أن الإستخدام المكثف لكلمة الغضى يعطى تأكيدا لهذه الصلة الحميمة

---

[1] القرشي، أبو زيد، محمد بن أبي الخطاب. جمهرة أشعار العرب. ص ص 269–272.

[2] نفس المرجع السابق. ص 268.

التي تربط الشاعر بالغضى ، لأنه من الأشجار الدائمة الخضره ، ولعل اسمه يوحي بذلك فهو غض دائما، ولهذا اختار الشاعر هذا النوع من الشجر ليؤكد على غضا ضة حسّة وتجربته، فرغم رحيله منذ أشهر ، إلا أن المكان لا يزال عبقا في ذهنه ، وذكراه مسيطرة على شعوره، وشذاه الغض المتصل بكافة جوانب حياته ، فهو يربطه بمرابعه ومكان عيشه، حيث يستظل بظله ، وهو وقوده ، والنار التي يتحلق حولها ويتسامر مع أحبائه ، فالغضى يمثل الوجود الحسي والنفسي للشاعر ولذا فإن استمرار رؤيته له يشعره بوجوده النفسي، لكنه يلتفت إلى ذاته، فلا أثر له، لذا يتمنى قضاء ليلة واحدة إلى جواره، ذلك أن هذا كفيل أن يمنحه راحة نفسية قبل النهاية المحتومة ، فالشاعر في رأينا يسيطر عليه زخم نفسي مرير ، لذا نجده يردّد كلمة الغضى مرة واحدة في البيت الأول، ومرتين في البيت الثاني ، وثلاث مرات في البيت الثالث وهذه حقيقة تعكس أمنية الشاعر رغبة منه في أن يكون بجنب الغضى، مما جعله يتهيأ نفسيا للرحيل إلى حيث يتمنى، فأخد الغضى يتردد على نفسه شيئا فشيئا ، لذا ذكره مرة في البيت الأول ودنا منه نفسيا فذكره مرتين في البيت الثاني، ثم استحوذ الغضى على شعوره وأحاسيسه وتمنى لو كان هناك رفقته ، ولذلك جاءت السيطرة اللفظية للكلمة لتعكس الإحساس النفسي لدى الشاعر ، والانتقال العاطفي إليه ، أما عبارته الأخيرة التي وردت في آخر هذه الأبيات الثلاثة في قوله : " ولكن الغضى ليس دانيا " فهو نفي للدنوّ الحقيقي ،لكن الدنوّ العاطفي والنفسيّ لم يُنفا ،فبيّن إرادة الحياة وحتمية الموت تصهر كل عواطف الشاعر وأفكاره .

فالشاعر مقيم بخراسان ويعاني من غربة نفسيّة، يحنّ إلى ديار الغضى التي تمثّل الحياة بالنسبة له فيقول :

أقلّب طرفي فوق رحلي فلا أرى به من عيون المؤنسات مراعيا

ومن الغربة إلى الأهل يقول :

تذكرت من يبكي عليّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا

وأشقر خنديد يجرّ عنانه إلى الماء ، لم يترك له الدهر ساقيا

ولكن بأطراف السمينة نسوة عزيز عليهن ، العشية مابيا

خداني فجرّ اني ببردي إليكما فقد كنت ، قبل اليوم صعبا قياديا

ويحرص الشاعر في هذا الموقف على تصوير شجاعته ومراوغته في الحرب فيقول :

ويوما تراني في رحا مستديرة تخرق ثياب الرماح ثيابيا

فهو شجاع مستهدف من قبل الأعداء بدليل أن الرماح توجه إليه ، لكن خفته و سرعة حركته لا تسمح لهذه الرماح أن تصل إلى جسمه ،وإنما تصيب ملابسه فقط ،وعند قرب تحقق الموت يقول :

ولما تراءت عند مرو منيّتي وحلّ بها سقمي وحانت وفاتيا

يبحث الشاعر عن أمل يتمسك به ويعيد له شيئا من نبض الحياة ، و إن كان نفسيا و لزمن قصير ،فظل يبحث عن علاقة أخرى تربطه بالغضى ، ولذا اتجه إلى السماء لعلها تمنحه راحة نفسية ، يأتي ذلك من خلال سهيل النجم اليماني ، وهو نجم يُرى في الحجاز ، وفي جميع أرض العرب ، ولا يُرى بخراسان ولذا فقد كانت أمنية الشاعر أن يتمكن من رؤية سُهيل ، كي تقرّ عينه قبل وداع الحياة ، وشوقه ليس للمكان فحسب ، بل أيضا لمن فيه وحين انقطاع العلاقة الأرضية ، يتمنى أن يلتقي مع من يحب من خلال سُهيل النجم فيقول :

أقول لأصحابي ارفعوني فإنه يقرّ بعيني أن سُهيل بداليا

وفي قوله :

ألم ترني بعت الضلالة بالهدى وأصبحت في جيش ابن عفان غازيا

فعاطفتان متباعدتان زمنيا تتجادبان ضبط هذا البيت ، فحذيثه عن سالف عهده لما كان يخبط في الضلالة خبطات عشوائية ، وعن اهتدائه إلى السبيل المستقيم ، وافتخاره بنفسه إذ أصبح مجاهدا في قلب جيش عظيم مجيد هو جيش سعيد بن عفان الذي قاده إلى النصر ،و مالفظة " بعت " إلا دلالة على عدم الحاجة أو الإستغناء ، والرغبة في التجارة الأخرى التي هي الهدى ، وهي كلمة استمدّ معناها الشاعر من القرآن الكريم لقوله تعالى في سورة الكهف ، **" من يهده الله فهو المهتد ، ومن يضلل فلن تجد له وليّا مرشدا "** [1].

وكذالك قوله تعالى : " ألم تر إلى الذين اشتروا الضلالة بالهدى والعذاب بالمغفرة ، فما ربحت تجارتهم " [2]

وإذا حللنا قوله :

دعاني الهوى من أهل ودّي وصحبتي بذي الطبسين فآلتفتت ورائيا

الشاعر هنا يعيش بجسده في خراسان لكن عاطفته وأحاسيسه ووجدانه مع أهله وذويه في ديار الغضى، فلم يستطع أن يردّد دعوة الهدى والحب من محبيه، و تمثلت استجابته لها في الإلتفات وراءه، عساه يرى طيفا من هذه الديار وأهلها، وما الإلتفاتات إلا حركة تلقائية ناجمة عن شوقه الكبير لها ، وتصل به الأزمة النفسية و

---

[1] سورة الكهف، الآية 17.

[2] سورة البقرة، الآية 16 .

الإغتراب العاطفي إلى القسَم بحياته وعمره ليعبّر على أن خراسان هي مكان إقامته الحسّي وأنه نائي بعيد عنها،راحل بشعوره، يشدّه إحساس عميق إلى دياره، فيقول:

أجبت الهوى لمادعا ني بزفرة تقنعت منها أن ألام ردائيا

لعمري لئن غالت خراسان هامتي لقد كنت عن بابي خراسان نائبا

ويكمل حديثه فيقول:

فللّه دري يوم أترك طائعا بنيَّ بأعلى الرقمتين،وما لنا

ودرُّ الظباءِ السانحات عشية يُخبرن أنّي هالك من ورائيا

ودرُّ كبيري للذين كلاهما عليّ شفيقُ، ناصح قد نهانيا

ودرُّ الهوى من حيث يدعو صحابه ودرُّ لجاجاتي، ودرُّ انتهائيا

فالشاعر يعاني آلام البين والجوى،وهو يصارع الموت ويجابه محطاته،فترسبت هواحبس كثيره في صدره،ترجمها لسانه، وراح يتساءل عن حال بنيه من بعد موته،ومن يسيِّر ماله ويحمي حريمه،ثم يتذكر غربته في هذه الديار، فيأسى ويزيد ألمه،لمّا يلتفت إلى حاله بعد موته، فلا يجد إلا أسلحته من سيف ورمح يبكيان عليه ،وكذا حصانه الأشقر السريع كالبرق، فيحزّ في نفسه أن يبقى بعده جارًا لعنان الخيبة، وحيدًا،لأن ساقيه

اختطفه المنون، لكن سرعان ما يؤسِّي نفسه، بأن هناك نسوة يعزّ ويصعب عليهن فراقه، لمّا يكون صريعا على أيدي الرجال، يحضّرون لحده بعيدًا عن دياره، ويعترف أنه قضاء من الله لا جدال فيه.

ولوحات مالك بن الرّيب تعددت ، وتفنن في رسمها في هذه القصيدة، بين موقفه من ماضيه،وما ينتظره في واقعه، وما يتوقعه من إلتحاق المنية به، وهو لا يخشى المنيّة في ذاتها وإلا ما عُدَّ غازيا ولا مجاهدًا، لكنه يخشاها فقط لأنها تأتيه بمنأى عن أهله في غربة بعيدة، يتمنى لو رآهم قبل حلولها، ومن هنا يسهل تصور

الموقف على ما ينضح به من حنين وآلام فرضتها على الشاعر غربته، لا جبنه وتخاذله، فهو يرسم لوحة دقيقة تعرض الجوانب البارزة التي اتصف بها، وخاض المعارك من خلالها، واقتحم الحدود الفاصلة بسلوك المجاهد الإسلامي، فقد عرف عنه ثباته في القتال بعد إدبار الخيل فيقول :

قد كنت عطّافا إذا الخيل أدبرت سريعا لدى الهيجاء إلى من دعانيا

قد كنت صبّارًا علىالقرن في الوغى وعن شتمي ابن العم والجار وانيا

فطورا تراني في ظلال و نعمة وطورًا تراني والعتاق ركابيا

و يوما تراني في رحى مستديرة تختزّق أطراف الرماح ثيابيا

فالشاعر يرصد معالم بطولته وشجاعته في القتال،والغزو من خلال ذلك الماضي المشهود له به، فهو فاتح إسلامي،وجندي شجاع يشده الشوق والحنين إلى وطنه وأولاده،ولذلك يتمنى ان يمدّ الله في أجله حتى يعود فيقول:

إن الله يرجعني من الغزو ولا أرى وإن قلَّ مالي طالبا ما ورائيا

ذلك أن ما يزيد في حنينه عندما يتذكر تعلقه بأهله على نحو ما يقول عن اِبنته:

تقول ابنتي لما رأت طول رحلتي سفارك هذا تاركي لا أباليا

أو ما يتخيله من حال أمه لما يبلغها خبر نعيه بعيدًا عنها:

فيا ليت شعري هل بكت أم مالك كما كنتً عالَوْا نعيك لو باكيا

وعندئذ يلتقي الجميع في ذهنه ليكوّنوا في ختام قصيدته جمعا باكيا عليه :

فمنهن أمي وابنتاي وخالتي وباكية أخرى تهيج البواكيا.

ومن هنا حرص الشاعر على تسجيل مبررات حزنه،وبكائه إزاء مواجهة الموت،ولذا راح يستطرد في عرض تلك الجوانب، فرسم لنفسه لوحة غاية في الحزن والكآبة، إذ تصدر عما يدور في أعماقه من أسى لفراق أهله وأحبائه دون رؤيتهم، إذ يتخيل ما سيحدث له في أرض خراسان بسبب هذا الحنين فيقول :

صريع على أيدي الرجال بقفزة يسوّون لحدي حيث حُمَّ قضائيا

ولما تراءت عند مروّ منيّتي وحلَّ بها جسمي وحانت وفاتيا

فلا يترك الصورة المتخيلة حتى يملأها بحنينه لرؤية سُهَيْل رمزمن رموز وطنه فيقول :

أقول لأصحابي إرفعوني فإنني يقرّ بعيني إن سهيل بدا ليّا.

ثم طرح المشهد بعد الموت كما يتخيله في لوحة فنية كاملة يرى فيها ما يحدث ،تقطّع لأوصاله، وبلاء عظامه، و انشغال ابنائه بميراثه ، مما يخفف من تطرف الصورة نحو الخوف المطلق أو الجبن من مواجهةالموت، ثم يردّد ما يدور في مشهد الذفن وانصراف أصحابه عنه، وهوموقف لا يقلّل من شجاعة الشاعر وبطولته –بقدر ما يضمه إلى القاسم المشترك الذي طرحه الشعراء– حين صوّر اللحظات الكئيبة التي يتركه فيها أصحابه في قبره وحيدًا فريدًا فيقول :

وراحوا عجالا ينفضون أكفهم يقولون، قد دمَّى أناملنا الحفرُ

ومع اللوحتين السلبية والإيجابية لما يتخيله بعدموته، وما يتصوره من مجد ماضيه يستعين مالك بن الريب على استكمال لوحة ذلك الماضي ،بذكر أدوات القتال استكمالا لمشهد فروسيته وشجاعته، إذ يجعل من تلك الأدوات ما يؤنسه أبضا أثناء موته وبعده، وكأنه يجمع بها بين الصورتين فيقول :

تذكرت من يبكي عليَّ فلم أجد سوى السيف والرمح الرديني باكيا

وأشقر محبوك يجرّ عنانه إلى الماء لم يترك له الموت ساقيا

وعلى هذا النحو بدت القصيدة قادرة على كشف الأبعاد النفسية التي يعيشها الشاعر بين ماضٍ يتذكر ما فيه،وبين حاضريشغله أسوأ ما فيه، ولذا سعى إلى تبرير الموقف في كلتا الحالتين من خلال التصوير الذي عرضته الأبيات، ومع اللوحتين ظهرت معالم بارزة تشير إلى دور الشاعر في الفتوح الإسلامية، وتحكي مثالية البطل المسلم بما يتمتع به من حميّة وحماس وصبر في القتال، كما سجّل حقيقة موقفه وما يسيطر على نفسه من حنين إلى وطنه وذويه، أبدية الفراق ناصعة لدى الساعر، فحالته النفسية تزداد سوءً حين يلح عليه المشهد الذي يقطع أواصره بقومه في قوله :

فياصاحبا إمّا عَرَضت فبلِّغن بني مالِك والريب أن لا تلاقيا

فالتجربة قاسية لقساوة الموقف،فهو أسير غربة، ورهين موت يترقبه فيها.

وهنا حريّ بنا أن نؤكد أن القصيدة تقوم أساسًا على الوحدة النفسية للشاعر، وهي وحدة تضطرم وتضطرب عنده، المنيّة تتراءى أمامه، وهو بعيد عن غضاه، بكل دلالاته الرمزية، غربة نفسية وغربة مكانية، شوق ولهفة إلى الأحباب، وإحساس نفسي بالرحيل، واقع ينفي ذلك..الخ ،هذا الشعور غير المستقر في نفس الشاعر، إنعكس بشكل واضح على تعبيره، أليس الشعر شيئا يختلج في الصدر، فينطق به اللسان ؟ إذن أمر طبيعي أن تبدو القصيدة ذات وحدة نفسية متآلفة، وقد حرص الشاعر على إبراز شجاعته وفروسيته تعويضا عن الضعف الجسدي والنفسي.

وما اختيار الشاعر للياء حرف رويّ للقصيدة، وألف الإطلاق المتصلة به إلا دلالة على النغم الحزين الممتد من أنّات الشاعر وآهاته، وهو يستقبل الموت بعيدًا عن دياره وأهله.

وخلاصة القول حول هذه القصيدة نقول ما قاله الدكتور غازي القصيبي: " **هذه أعظم القصائد في شعرنا**" [1]،لأنه-في رأينا- صوّر معاناته الداخلية وصراعه النفسي، فربط بين ثنائية محكمة بين الفتح الإسلامي،وبين ذاتيته فسجل حزنه وحنينه على من خلفهنّ في العراق بلا عودة ويواجه حتمية الموت وهو بعيد الدار نازح عنها، فاندفقت عاطفته بكل تلقائية لتصور ما تعجّ به نفسه من مشاعروأحاسيس وآلام وأحزان، وراح يعبّر عن ذلك في نمط قصصي جذّاب ،مشوّق ومؤثر، فرسم صورة فنية رائعة شديدة الإيحاء بكل ما يعتريه من خلجات فشخّص مشاعره وجحظ أحاسيسه، فشدّ القارئ إليه ليتتبع كلَّ أفكاره وأوصافه بكل شغف ودون ملل، فتجربته كانت قاسية، ومأساته فضيعة، لكن نَفَسَهُ كان طويلا، وصموده كان عنيدًا.

[1] **القصيبي، غازي. قصائد أعجبتني. ط3. ص 89.**

"كان بين المعركة مما يلي القادسية [1]، وبين حصن العذيب نخلة وحيدة، وكان إذا مرّ الجرحى عليها، طلبوا ممّن يحملهم التريث تحت ظلها للحظات، فينشدون بيتا أو بيتين من الشعر، يحنّون فيه أو فيهما إلى مرابعهم الأولى، وطبيعتهم التي ألفوها" [2].

فلوحة الصحراء وأدواتها حاضرة في حياتهم، لأنهم ترعرعوا في أحضانها، وشربوا من لبن نوقها، وتمرغوا على رمالها، وقاوموا عواصفها وأهوالها، وأكلوا من ثمارها، فترسخت في أذهانهم صورة النخلة إبنة الصحراء،وهم يجوبون مدائن الفرس وقصور الروم، فما أن يراها الواحد منهم حق يسرع إليها، فيستظل بظلها، ويسندها عساه يعود بذكرياته إلى مرابعه الأولى، فيستلذ طيفها وتغمره بآمالها وآلامها.

وها هو رجل يدعى بجيرا يقول بعد أن استظل بظلها :

ألا اسلمي يا نخلة بين قادس وبين العذيب لا يجاورك النخل [3]

فالبيت يدلّ على أن الشاعر متلهف إلى صحرائه التي كان يقطن فيها، والتي هي جزء منه، لذا يدعو بالسلام لهذه النخلة المتواجدة بين القادسية والعذيب والتي لا يجاورها نخل، فوحدتها تمثل وحدته، وعبارة "لا يجاورك النخل"تدل على تأسفه،لأن هذه النخلة وحيدة في هذه البقاع،لذا يتمنى لها السلامة لتبقى حيّة وهي صورة تجسّد حاله وغربته.

(1) القادسية: منطقة قرب الحيرة، بينها وبين الكوفة 15 فرسخا أي 120كلم.

(2) (3) كمال، أحمد عادل. القادسية. ص 166.

وقال جريح من بني ضبّة يدعى "الرغل غيلان" :

ألا اسلمي يا نخلة بين جرعةٍ يجاورك الجمان دونك والرَّغل [1].

فجاوبهما ربعي جريح من بني تميم الله :

أيا نخلة دون العذيب بتلعةٍ سقيت الغوادي المدجنات من النخل [2]

فكل واحد من هؤلاء يشكو لها غربته وآلامه ووحدته كوحدتها في هذه المرابع الخالية، وما جلبت انتباه كل واحد منهم إلا لأنها وحيدة كوحدته في هذه الديار الفارسية، كما أنها رمز حيّ للصحراء العربية موطنهم الأصلي:

وقال أحدهم في هذه النخلة وَجارتها الوحيدتين في هذه القفار :

أسعداني يا نخلتي حلوان وابكيالي من ريب هذا الزمان

واعلما أن ريبةٌ لم يزل يفـ رق بين الآلاف والحيران

ولعمري لوذقتما ألم الفُرْ قة قد أبكاكما الذي أبكاني

أسعداني وأيقنا أن نحبسا سوف يلقاكما فتفترقان [3]

الشاعر سعيد برؤية هذه النخلة، لأنها ذكرته بنخل وطنه الأم، ويبكي من ريب هذا الزمان الذي قسا عليه، وعضّه بنابه، وفرّق بينه وبين أحبائه، ويصل به الحزن إلى ذروته فيُقْسِم بعمره، بأن الفرقة قاسية وآلامها حارقة، ودموعها لا تنضب. فالزمان قسا عليه وفرّق بينه وبين ألفه، لذا هوحيران، حزين لهذه الغربة التي يعانيها

---

(1) (2) كمال، أحمد عادل . القادسية. مرجع سابق. ص 166.

(3) المسعودي، أبو الحسن . مروج الذهب. ج2.ص 209.

ويقاسيها، ويتألم لها، فالفراق أثّر فيه وأسال دموعه، وأضنى فؤاده، فأفرغ جمّ أحزانه ومعاناته الأليمة على هاتين النخلتين الوحيدتين، وحمّلهما البكاء عليه، وعلى حالته اليائسة البائسة، فنفسيته مريضة، متعبة من ألم الغربة، لذا يخاطب هاتين النخلتين ويوجّه لهما خطابه، ويطلب منهما البكاء على حاله و قد أعاد كلمة بكاء مرتين دلالة على ما تصبو إليه نفسه للتنفيس عنها، فقد اكتوى بنار الغربة، واحترف بلظاها، واغترف من مآسيها.

الحنين إلى الوطن والأهل وأثره في الشعر :

غرض من أغراض الشعر العربي، إزدهر أثناء الفتوحات الإسلامية، ذلك لأن الفتوحات قد انتزعت المجاهدين من أوطانهم، ومن ذويهم وأحبابهم، ومن ثمّ وجدنا كثيرا من الشعراء يتحدثون عن حنينهم وتشوقهم لأهليهم ولمرابع صباهم، ويشكون ويبكون من الإغتراب والبعد، بأشعار تتدفق فيها حرارة العاطفةوصدق المشاعر.

وتذكرنا هذه الأشعار بالوقوف والبكاء على الأطلال الذي شاع في العصر الجاهلي، وإن كان الحنين من شعر الفتوحات يمتاز بجباشة العاطفة وتدفّقها مثل قول أحد الشعراء :

أحن إلى أرض الحجاز وحاجتي وخيام بنجد دونها الطرف يقصر

وما نظري من نحو نجد بنافع أجل لا ،ولكني إلى ذلك أنظر

أفي كل يوم نظرة ثم عبرة لعينك مجرى مائها يتحدر ؟

متى يستريح القلب إما مجاوز يحرب وإما نازح يتذكر ؟ [1]

قال معن بن أبي عاصية السلمي في الحنين إلى أرض الحجاز عندما نزل العراق :

تطاول ليلي بالعراق ولم يكن عليّ بأكناف العراق يطول

فهل لي إلى أرض الحجاز ومن به بعاقبة قبل الممات سبيل

إذا لم يكن بيني وبينك مرسل فريح الصِبا منّي إليك رسول [2]

وهذه أبيات نسبت إلى جبلة بن الأيهم في معركة اليرموك ،وقد قالها وهو في ديار الغربة في بلاد الروم يعلن فيها حنينه إلى بلاده.

---

[1] **الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ص 447.**

[2] **علام، علي، أحمد. شعراء فرسان تحت راية الإسلام. ص 294.**

تنصرت الأشراق من عار لطمة وما كان فيها لو صبرت لها ضرر

تكنفني فيها لجاج ونخوه وصنعت بها العين الصحيحة بالعور

فيا ليت أمي لم تلدني وليتني رجعت إلى القول الذي قاله عمر

وليتني أرعى المخاض بدمنة وكنت أثير في ربيعة أومضر

ويا ليتني بالشام أو في معينة أجالس قومي ذاهب السمع والبصر [1]

وغالبا ما يستبد الحنين عند المرض واقتراب ساعة الأجل، فتنهمر الدموع، فهذا أحد الشعراء يقارن بين ما هو فيه في حلوان وبين ما خلفّه وراءه في بلاد نجد فيقول :

تلفتُّ من حلوان والدمع غالبُ إلى روض نجد أين حلوان من نجد

لحصباء نجد حين يضربها الندى الذُّ وأشفى للعليل من الورد

ألا ليت شعري هل أناس بكيتُهم لفقدهم هل يُبكينَّهم فقدي

أداري ببردِ الماء حَرَّ صبابةٍ وما للحشا والقلب غيرك من برْدِ [2]

عند تحليلنا لهذه الأبيات نتوقف عند كلماتها الموحية، التي اختارها الشاعر لينسج بها هذه القطعة الشعرية، تلفت، دموع غالية، علّة، بكاء، فقدان، صبابة، فاكتواؤه بهذه الأخيرة، جعل كلّ حرف منها يقطر حزنا وألما، وكل لفظة توحي بما في مافي نفسه من براكين الشوق وآلام النوى، وهو في هذه الأرض النائية عن مرابع صباه، فذكرياته الماضية تذكّره بنجدموطنه الأصلي، فلا يجد إلا الإلتفات إلى نجد روضته الجميلة وما

[1] جلوي، جون، باجوت.الفتوحات العربية الكبرى. ص 95.

[2] معروف، نايف. الأدب الاسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين. ط1. ص 217.

تساؤله في الشطر الثاني من البيت الأول إلاّ ليبّين أنه لا توجد مقاربة بين حلوان ونجد، وهذا لشدة تعلقه بهذه الديار.

ويبدو – في اعتقادنا- أن الشاعر عليل بأوجاع الفراق وبالبعد، وهومرض نفسيّ مُتأت من الشوق والحنين والغربة، فحصباء نجد في نظره أحسن وأشفى للمريض – ويقصد نفسه- من ورد حلوان، وفي البيت الثالث يستعمل لفظة "البكاء" مرتين و "الفقد" مرتين وكلاهما تعبّران عن لوعته وشجونه.

وما البكاء إلا تنفيسا عن الأدواء، فالفقدان داء، دواؤه الدموع، وما غلبة دموعه وانسيابها على رياض نجد إلا تعبيرا عن حاله.

كما استعمل لفظة "ليت" وهي توحي بمدى تمنيه وترجيه في المواساة، فمثلما بكى على المفقودين يوما بشعره، يتمنى أن يبكوا عليه اليوم وهو مفقود، فحاجته إلى من يواسيه غربته ملحّة، ورغبته فيمن يقاسمه همومه قويّة، ولا يجد لإثلاج نار الجوى، إلا الماء البارد لإطفاء ناره المتقدة، المتأججة بين ضلوعه، فما يبريء سقم نفسه هو عودته إلى دياره بين أهله وخلانه، ويصل التدفق النفسي والشعوري بالشاعر إلى أوجّه حيث لا حياة إلا في مرابع صباه نجد،ولا جمال إلا بين أحضانها، ولا انتعاش إلا بين رياضها وظلالها، فالغربة قطعت أوصاله، وقطعت الطريق بينه وبين من يحب. لكن الخيط النفسي باقٍ في الأبيات، فالألم والحنين والغربة والدموع والصبابة هي سمات هذه الأبيات.

نالت نجد والحجاز عامة، والمدينة ومكة خاصة، إهتماما كبيرًا عند الشعرا، وهم بعيدون عن هذه المواطن يحنّون إليها، فالمدينة هي مدينة الرسول $ وموطنه في الحجاز، ومما زاد حنين الشاعر هنا وشوقه هو إخفاقه في العراق، فالارتباط بالوطن قرن بالحالة الاقتصادية المادية ،حتى أنه يتلمس المساعدة من السماء يقول ابن المولى في هذا الشأن :

ذهب الرجال فلا أحسُّ رجالا وأرى الإقامة بالعراق ضلالا

وأرى المُرحِي للعراق وأهله ظمآن هاجرة يؤمل آلا

وطربتُ أن ذكرَ المدينة ذاكرُ يوم الخميس فهاج لي بلبالا[1].

وجعلت أنظر في السماء كأنني أبغي بناحية السماء هلالا

طربا إلى أهل الحجاز تارة أبكي بدمعى مُسبل إسبالا

إن الغريب إذا تذّكر أوشكت منه المدامع أن تفيض علالا [2].

وها هو عوف بن محلم الخزاعي يخرج من الجزيرة ويتنقل مع طاهر بن الحسين،ثم مع ولده عبد الله بن بن طاهر من بعده، يشهد معه الحروب في الريّ، وخراسان، ويقيم حيث يقيمان في الولاة، ويشتد به الحنين إلى وطنه وإلى أبنائه، ويزداد إحساسه بالغربة بعد أن دهمته الشيخوخة فيتلهف إلى الإستراحة من رحلته الطويلة بالعودة فيقول:

أفي كل عام غربة ونزوح أما للنوى من وينة فتريح

وأرّقني في الريّ نوحُ حمامة فنحت،وذو اللبّ الحزين ينوح

على أنّها ناحت فلم تر عبرة ونُحتُ وأسراب الدموع سفوح

وناحت وفرخاها بحيث تراهما ومن دون أفراخي مهامه يفيح

ألا يا حمام الأيك فرخُك حاضر وغصنك ميّاد ففيم تنوح ؟ [1]

---

[1] بلبال: شدة الهمّ.

[2] طنوس، وهيب. الوطن في الشعر العربي. ص ص 286 .

في هذه الأبيات، الشاعر مثقلة نفسه بهموم الغربة والنوى، وقد أضنت فؤاده، وزادت عن الحدّ، ولم يتحمل ضعفه ولا جهده هذه الآلام، فلوعته عميقة.

وما أرّقه وهو غريب عن الريّ ببلاد فارس، نوح الحمام، فأسالت دموعه، وما هي إلا دموع القلب العليل، فهيهات أن تقرّ جوانحه، وهو في هذه الديار الغريبة عنه أو أن يلين مهاده، فدمعه ملازم لوسادته، وولهه مصاحب لمسيرة حياته، فإن كانت تنوح وفراخها بجنبها، وهي تتمايل على موطنها، فكيف يكون حاله وهو البعيد عن وطنه، ومرابعه وأولاده، فمَن الأولى بالنواح؟

فالمصاب جليل والصبر جميل، والجراح عميقة، والأسقام بادية ودخيلة.

وهذا شاعر يستبد به الحنين، فينظر ناحية نجد، وبالرغم أنه لا يرى شيئا، إلا أنه يلتفت إلى جهتها حنينا إليها وإلى خيامها، التي يقصر عنها الطرف، وبالرغم أنه يعلم ألا نفع من هذا، إلا أنه يواصل النظر نحوها، ثم تجري عبراته منحدرة من مدامعه حسرة على دياره وأهله، فلا يستريح قلبه، ولا تهدأ نفسه فيقول:

أكرر طرفي نحو نجد وإنني برغمي وإن لم يدرك الطرف أنظر

حنينا إلى أرض كأن ترابها إذا أمطرت عود ومسك وعنبر

بلادكأن الأقحوان بروضه ونور الأقاحي وشى برد مجبر

أحنّ إلى أرض الحجاز وحاجني خيام بنجد دونها الطَرْف يقصر

وما نظري من نحو نجد بنافع أجل لا، ولكني إلى ذاك أنظر

---

(1) نفس المرجع السابق. ص **287**.

أفي كل يوم نظرة أوعبرة لعينك مجرى مائها يتحدر

متى يستريح القلب إما مجاوز بحربٍ وإمّ نازح ينذكر [1].

يقلب الشاعر طرفه نحو نجد، بلده العتيق، الضارب جذوره في أعماق تاريخ موطنه الأصلي، فتنحدر دموعه حنينا إليها، ورغم أنه متيقن بعدم إدراك بصره هذه البلاد، هذه الحبيبة الغالية، إلا انه يلتفت إليها شوقا وحبّا أرض نجد، ترابها يفوح مسكا وعنبرًا عندسقوط الأمطار عليها، وما شغف الشاعر بترابها ورائحته إلا تعبيرًا عن شغف نفسه بموطنها وأهله، وماذكره للأمطار –في اعتقادنا– إلا تعبيرًا عما تصبو إليه نفسه الحالمة، فهي أمطار داخلية تسحّ في باطنه، إنها دموعه الغزيرة المنهمرة من نفسه الكئيبة المتلهفة إلى موطنها، الهاتفة، الحالمة بنجد الجميلة وبرياضها وأقحوانها الذي يزيدها رَونقا وبهاءً .

وتذكر الشاعر خيام نجد، وهو يحدّث نفسه بأن لا جدوى من النظر نحوها، فحالته النفسية تتجاذبها عاطفتان؛ عاطفة الإلحاح على النظر صوبها، وعاطفة عدم جدوى النظر واليأس منه، لأنه ببلاد نائية عن مرابعه، بعيدة عنها، ولم يتماسك الشاعر، وهو يتذكر جمال بلاده، ففلتت كلمة "حميمية" تنم عن مشاعر وجدانية صادقة لم يستطع الشاعر أن يتحكم فيها، وهي "أحنّ" فالحنين شعور نفسي داخلي، دفعه دون توان أن ينظم هذه المقطوعة، حنينه إلى أرض الحجاز، وإلى خيام نجد وأهلها، وصَاحَبَ هذه النظرات المصوّبة نحو ناحية نجد، وهذا الحنين ،عبرات انحدرت من مقلتيه كمجرى الماء، ولهذا علاقة بالأمطار التي ذكرها، فماء حياته قد نَفَد في جوف الصحراء، وماء قلبه نضب في صحراء حبّه لنجد،وهيامه بها، فخطّ هذه الأبيات بدموعه التي تسحّ على القرطاس سحَّ الغَروب، ويصل التصاعد الوجداني بالشاعر إلى نهايته، فيتساءل متى يحسّ براحته ويرتاح قلبه من هذه الهواجس التي نغصّت حياته وهذه الأحلام والآمال التي أدلجت نهاره، ويعود إلى وكره كالطائر النازح المهاجر.

---

[1] **الحموي، ياقوت . معجم البلدان. ج4. ص 747.**

التقى الجيشان ؛ المسلم والفارسي، فاقتتلوا بالجانب الأدنى من نهر الصراط قتالا شديدا، وكان مع الأعاجم فيل من أفيال القتال جال يفرّق بين صفوف المسلمين، فتداوله المثنى والناس من أبطال المسلمين حتى أصابوا منه مقتلا، وبمقتله انهزم المجوس وشرعوا في الفرار، واتبعهم المسلمون يقتلونهم حتى حازوا بهم مساكنهم، فأقاموا فيها، وأوغلوا في مطاردتهم حتى انتهوا إلى المدائن، وكان الشاعر المخضرم عبده بن الطبيب السعدي التميمي ممّن شهد هذه الموقعة، فخرج في هذه الحملة لمهاجرة حليلة له إلى جهة بابل فلما آيسته رجع إلى البادية وهو يقول:

هل حبل خولة بعد البين موصول　　أم أنتَ عنها بعيد الدار مشغول

وللأحبة أيام نذكـرها　　وللنوى قبل يوم البين تأويل

حلّت خويلة في حيّ عهدتهم　　دون المدائن فيها الديك والفيل

يقارعون رؤوس العجم صاحية　　منهم فوارس لاعزل ولا ميل

والمرء ساع لشيء ليس يدركه　　والعيش شحّ وإشفاق وتأويل [1]

عبدة بن الطبيب في هذه الأبيات متأثر أشد التأثر بفراق خولة حليلته، فنفسيته كئيبة حزينة، منقسمة إلى شطرين؛ شطرمع خولة، وشطر يئن ويتألم تحت وطأة هذه الغربة وهذا الفراق، بَيْنٌ ذكرّه بأيام الوصال التي كانت طلقة من تجمعهما وصافية من تآلفهما، فخولة اليوم بعيدة بجسدها، لكنها حاضرة بطيفها الذي لا يفارقه، فبعد الديار عنها، وانشغاله بواجب الجهاد في سبيل الله، ورغبته الملحّة في الفتوح والإنتصارات، كل هذا حاله دونها، وكسّر شوكته، وجعله حزينا لفراقها وبعدها، وهو يسعى لأن يدرك ما يتمنى ليعود إلى حبيبته، لكن الحياة قاسية

[1] كمال، أحمد، عادل. الطريق إلى المدائن. ص 245.

والمعارك مع العجم حامية الوطيس، فما يرجوه إلا الشفقة على حاله والأمل في تحقيق مآربه. فالغربة والبعاد ولدّا في نفسه مشاعر رقيقة تركت بصماتها قوية في حياته ترجمتها أشعاره.

مظاهر البيئة الجديدة وأثرها في الشعر:

تحسر الشاعر على دفء موطنه،وتأثر بمظاهر الطبيعة الجديدة، فأجواء هذه المناطق النائية باردة،والعربي لم يألف تساقط الثلوج، فكان مظهرا طبيعيا جديدا ،فيه متعة لكن فيه قساوة، فهو لم يتعود على البرد الشديد، فها هو يذم جوّ مرو، ويتمنى جوّ العراق في برّه وبحره إذ يقول:

وأرى بمرو الشاهجان تنكرت أرض تتابع ثلجها المذرور

وأسفى على برّ العراق وبحره إنّ الفؤاد بشجوه معذور [1].

وإن كان هذا الشاعر متشوق إلى برّ العراق وبحره، ويتحسر عليه وفؤاده مشجوب أسفا للقائه، وهومعذور في ذلك، فإن شاعرا آخر من الفاتحين يقول:

أتبكي على نجدٍ وريَّا ولن ترى بعينيك ريَّا ما حييت ولا نجدا

ولا مشرفا ما عشت أقفار وجرة ولا واطئامن تربهن ترى جعدا

ولا واجدًا ريح الخزامي تسوقها رياح الصبا تعلو دكادك أو وهدا

تبدَّلت من ريَّا وجارات بيتها قرى نبطيات يسميني مردا

ألا أيّها البرق الذي بات يرتقي ويجلو دجى الظلماء دكّرتني نجدا

ألم تر أن الليل يقصر طوله بنجد وتزداد الرياح به بردا [2]

حالة نفسية مؤثرة بلغت بالشاعر إلى درجة البكاء على دياره بنجد حيث ريّا حبيبته، التي .يجزم أنه لن يراها ولا ديارها، كما يتوق إلى ليل نجد القصير ورياحها الباردة، في حين بيئته الجديدة، لياليها تزداد طولا وقيظا.

---

[1] **الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج2 ص 510.**

[2] **الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج4، ص 906.**

ومن شدة قساوة شتاء مرو، وقضاء أهلها شتائهم مقرورين محتمين بأثواب يدسّون أيديهم فيها لشدة البرد كأنهم أسرى فيقول :

وأرى بمروَ الشاهجان تنكرت أرض تتابع ثلجها المذرور

إذ لا ترى دابرة مشهورة إلا تخال كأنه مقرور

كلتا يديه لا تزايل ثوبه كل الشتاء كأنه مأسور [1].

كذلك كانت كنائس الروم وبيعهم وما تتميز به من زخارف ونقوش،ورخام، وهي مواد جديدة على العرب الفاتحين، فلفتت إنتباههم وها هوالحارثة بن النمر الذي شهد معركة **اليرموك** [2] يقول:

لله باليرموك قوم طحطوا أحساب عاتى الروم بالأقدام

فتعطلت منهم كنائس زخرفت بالشام ذات فسافس ورخام [3].

ومن المظاهر الجديدة التي لم يألفها العربي الفاتح، رؤية الفيل،لذا نجده يشدّ انتباهه، ويهتم بحاله، فيصفه وصفا دقيقا كما نرى هذا عند أحد الرجاز :

أجرد أعلى الجسم منه أضخم يجر أرحاء ثقالا تحكم

ما تحتها من قرضها وتهشم وحنك حين عدَّ أفقم

ومشفى حين يمدّ سرطم يرده في الجوف حين يطعم

لو كان عندي سبب أو سلم نجيت نفسي جاهدًا لا أظلم [4]

---

[1] الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج4. ص 510.

[2] اليرموك : هو نهر يصب في الأردن وراء بحيرة طبرية.

[3] العسقلان،ي إبن حجر . الإصابة في تمييز الصحابة. ج2. ص 56.

[4] الجاحظ، عمرو بن بحر. الحيوان. ج7. ص 172.

وهذا آخر يصفه فيشبه آذانه بالمناديل فيقول :

من يركب الفيل فهذا الفيل إن الذي يركبه محمول

هل تهاويل لها تهويل كالطود إلا أنه يجول

وأذنه كأنها منديل [1].

فهذا الجسم الضخم بكل ما يحمله من أعضاء، أخاف العرب وأهالهم، فكل ما فيه أدهشهم كأرحائه وحنكه وأذنيه ومشفاه وسرطمه،و علوّه وضخامته فشبهوه بالطود الأشم لكنه لا يتحرك.

ومن الشعراء الفاتحين الذين عبّروا عن إعجابهم بهذه البلاد الجديدة التي فتحوها، وبجمال طبيعتها الشاعر أبي بجيد الأسود بن قطبة الذي يشيد فيها بريف الريّ فيقول :

رضينا بريف الريّ،والريّ بلدة لها زينة في عيشها المتواتر

لها نشز في كل آخر ليلة تذكر أعراس الملوك الأكابر [2].

فمن فرحة الشاعر وسروره بهذا الريف الجميل، تصورّه آخر الليل عرس بهيج لملوك كبار، فنفسيته هنا تتلألأ حبورًا، وتترنّم مع هذا اللّيل الذي صنع خيوطه، هذا الريف بطبيعته البهيّة الشاذية.

ومثله سواد بن قحطبة الذي طلب ممن يعرض إلى أخيه أُسَيد أن يبلّغه بمناظر الطبيعة الجميلة في جرجان فيقول :

ألا أبلغ أسيدًا إن عرضت بأنّنا بجرجان في خضر الرياض النواضر [3].

---

[1] **الجاحظ، عمرو بن بحر. الحيوان. ج7 . ص 173.**

[2] **الحموي، ياقوت. الإصابة في تمييز الصحابة. ج4. ص 540.**

[3] **الحموي، ياقوت. الإصابة في تمييز الصحابة. ج2، ص 865.**

فالرياض الجميلة، والحدائق الغنّاء من مظاهر الطبيعة الجديدة التي جذبت أنظار الفاتحين، وجلبت إنتباههم، فراحوا يفزعون إليها، ويتصلون بها، ويشغلون أوقاتهم بمداعبتها، ويتنعّمون بنضارتها، ولعلّ أشد هذه المشاهد لفتا لأنظار العرب الفاتحين في أول نزولهم ببلاد الفرس " الفيَلة " التي واجهتهم بشدة وقوة في معاركهم، لأن الفرس كانوا يجعلونها في المقدمة وبعدها الجيوش، فكم من معركة خسروها بسبب هذه الفيلة التي تهاجمهم بكل شراسة وتخيف خيولهم، فتضطرب وتتراجع من ذلك ما قاله ربيعة بن مقروم الضبي :

ودخلت أبنية الملوك عليهم ولشرقول المرء ما لم يفعل

وشهدت معركة الفيول وحولها أبناء فارس بيضها كالأعبل

متسر بلي حلق الحديد كأنهم جرب مقارفة عنية مهمل [1].

وبقي المسلمون الفاتحون يهابون الفيَلة ،حتى تجرّأ فارس شجاع هو القعقاع بن عمرو الذي قطع مشفر الفيل الأعظم يوم القادسية، وفقأ عينه برمحه ثم قال :

فإن كنت قاتلت العدوّ فنلته وإنّي لألقى في الحروب الدواهيا

فيولا أراها كالبيوت صغيرة أسمِّل أعيانا لها ومآقيا [2].

وهذا أبومحجن الثقفي يقول :

وما رُمت حتّى خرّقوا بسلاحهم إهابي وجادت بالدماء الأباجل

وحتى رأيت مُهرتي مزوئرة لدى الفيل يدمي نحرها والشواكل [3]

---

[1] الجاحظ، عمرو بن بحر . الحيوان. ج7. ص 263.

[2] الضبي، المفضل . المفضليات. ص 268. والبغدادي، عبد القادر .الخزانة. ج3. ص 566.

[3]الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك. ج5، ص 2327.

فهذا حال الفيل بالخيول والنوق، لكن القعقاع بن عمرو أخذ بتأثره وثأر هؤلاء منه، لذا نجد عمرو بن العاص يشيد بفعلته هاته، وببلائه في إراحة المسلمين من هذه الفيَلة فيقول :

فقد لقيت خيولهم خيولا وقد وقع الفوارس في الضراب

وقد دلفت بعرصتهم فيول كأن زهاءها إبل جرَّاب

فلولا جمع قعقاع بن عمرو وحمَّال للّجوا في الكذاب

هم منعوا جموعكم بطعن وضرب مثل تفتيق الإهاب

ولولا ذاك ألفيتم رعاعا تشلّ جموعكم مثل الذباب [1].

هذا الذباب أيضا لم يألفه المسلمون الفاتحون، فاشتكوا منه لأنه آذاهم، وآذى نوقهم، ومنعها من شرب الماء وردّها عنه،مما حزّ في نفوسهم و أنطق شعرائهم فها هو خالد بحند عياض يقول :

لقد حبست في كربلاء مطيّتي وفي العين حتى عاد غثاً سمينها

إذا رحلت من مبرك رجعت له لعمرو أبيها إنّني لا أهينها

ويمنعها من ماء كل شريعة رقاق من الدبَّان زرق عيونها [2]

[1] الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير . تاريخ الرسل والملوك. ج5، ص 2358.

[2] الطبري، أبو جعفر، محمدبن جرير . تاريخ الرسل والملوك، ج4، ص 2059.

رثاء الخمر:

لون جديد من الرثاء ، يظهر عند بعض الشعراء في عهد عمر بن الخطاب ، ذلك هو رثاء الخمر والبكاء عليها ، فعندما بلغ عمر أن بعض الجنود في الشام يشربون الخمر ، أمر بإحراق الحانات مما جعل الشعراء يتحسرون عليها ، ويبكونها ضائقين بما أمر عمر ، من ذلك قول أبي محجن الثقفي الذي شهد معركة اليرموك :

ألم تر أن الدهر يعثر بالفتى وليس على صرف المنون بقادر
صبرت ولم أجزع وقد مات اخوتي ولست على الصهباء يوما بصابر
رماها أمير المؤمنين بحتفها فخلانها يبكون حول المعاصر
فلا تجلدوها واجلدوهم فإنّها هي العيش للباقي ومن في المعاصر [1]

أبيات حزينة، مفعمة بالأسى، كل لفظة فيها تعّبر عن نفسية الشاعر القلقة،لموقف أمير المؤمنين عمر بن الخطاب من الصهباء، فجزعه على فراقها، لا يدانية جزع، نفسيته تثفتت، وعينيه تدمعان ، فهو غير قادر على الصبر عليها، رغم أنه صبر على موت إخوته، رغم ما لرابطة الأخوة من أثر في النفس، فالخمر رمز لحياته وحياة خلانه، ولا شك أن هذه النزعات الجاهلية لم يستطع الشاعر التخلص منها، رغم إسلامه، ورغم تحريم الخمر، لكننا نراها تظهر أحيانا عند بعض الشعراء –وفي رأينا– أنه وقع في خطإ عروضي وهو عيب من عيوب القافية حيث كرّر كلمة المعاصر قبل سبعة أبيات وهذا ما يسميه علماء العروض بـ "الإيطاء"

وهاهو شاعر آخر أقام عليه عمر بن الخطاب الحدّ عدة مرات، وحبسه سعد بن أبي وقاص، فتاب عنها ثم قال :

أتوب إلى الله الرحيم فإنّه غفور لذنب المرء ما لم يعاود
ولست إلى الصهباء يوما بعائد ولا تابع قول السفيه المعاند [2]

(1) (2) الشوري ، مصطفى، عبد الشافي، شعر الرثاء في صدر الإسلام.ص84

الفصل الرابع

الخصائص الفنية لشعر الفتوح الإسلامية

- اللغة والأسلوب
- الصور والأخلية
- الأوزان والقوافي

توطئة:

الأدب فن جميل يعتمد على عذوبة الكلمة وسحرها وقدرتها على التأثير، ولكي يكون للكلمة هذا المفعول، حرص الشعراء العرب، منذ عهدهم الأول، أن يشحنوها بأجمل المعاني، وأكثرها اِرتباطا بعواطف الناس، وأدناها إلى الإعراب عن مكنونات نفوسهم، طبقا لملابسات الحياة وروح العصر، فالقدرة على الإيصال والتأثير، أتاحت لشعرائنا دائما، أن يتبوؤوا مقام الخلود على مرّ العصور، فإذا ما نحن بحثنا عن مواطن المتعة والجمال في شعر شعراء الفتوح الإسلامية، وجدنا هذه المميزات كامنة في صدق العاطفة ولطف الخيال، وانتقاء العبارة، والقدرة على التأثير، تلك هي عوامل خلود هذا الديوان الشعري الضخم الزاخر بمختلف الأغراض الأدبية، وقد حاولت في هذا الفصل الوقوف عند الخصائص الفنية لهذا الشعر المتمثلة في اللغة والأسلوب، الصور والأخيلة و الأوزان والقوافي، أو كما تسمى بالموسيقى الخارجية.

اللغة والأسلوب:

" لم يعد أسلوب الشعر في صدر الإسلام بنفس القوة التي كان عليها أسلوب الشعر الجاهلي، وذلك لأن الشاعر الإسلامي كان عليه أن يختار لفظه ومعناه وفق تعاليم الإسلام، بينما هو في الجاهلية يختار ما يحلله ويقول الشعر على سليقته دون قيود أو موانع " [1].

وكانت عاطفة الشاعر الإسلامي الفاتح – في أغلب الأحيان – صادقة لا تكلف فيها ولا كذب ولا رياء، وذلك لأن تعاليم الإسلام تنص على ذلك.

ومن خلال ما درسناه من قصائد شعرية وحللناه، نلاحظ اِختفاء الألفاظ والمعاني الجاهلية التي لا تتفق ومبادئ الإسلام، فآنسابت معاني الشعر على ألسنة الشعراء الفاتحين سهلة ميسورة، واضحة في مجملها لا صعوبة فيها، مستمدة – في معظمها – من بيئتهم، معبرة عن خلجات نفسياتهم، وما اِعترتها من أحزان وأشجان، مستوحاة من إيمانهم العميق الذي كسّر الحواجز والحدود، وتصدى لكل جبّار عنيد، ففاضت قريحة الشعراء إسلامية محضة، فكانت الألفاظ فصيحة عذبة، سهلة التراكيب، ذات وقع في النفس، موحية بكل المعاني التي تعجُّ بها نفسية الشاعر، معبّرة عن معاناة تباريح الحب والجوى، ومقاساة آلام الهجر والبعاد عن الأوطان والخلان.

وأما قصائد الحماسة فتميزت بخطابية النبرة، المعنى العنيف والألفاظ الصاخبة التي تشتد وتنزو حتى يأخذ السامع بما فيها، ويتأثر برنّة الألفاظ والضجيج قبل أن يفهم المعنى، فكأن الحماسة في الحروف والألفاظ في صياغة العبارة قبل أن تكون في المعنى المجرد.

---

[1] **السرطاوي، معادا. دراسات في الأدب العربي. ص 13.**

وعبارات هذه الأشعار محكمة النسيج، مترابطة، متناسقة لا تنافر بينها، كما غلب عليها الأسلوب الخبري، لأنه مناسب للأغراض الشعرية التي شاعت آنذاك، كالحماسة والرثاء، والغربة والحنين إلى الأوطان والفخر وغيرها من الأغراض التي تتطلب ذكر الأوصاف وسرد الأحداث.

جاء في كتاب دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني " أن الأسلوب هو طريقة الكتابة أو طريقة الإنشاء أو طريقة اِختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير، أو الضرب من النظم والطريقة فيه " [1].

وقد تميّز أسلوب الشعراء الفاتحين بألفاظ قوية الجرس، إيجابية المعنى، عبّرت ووصفت الرماح، والسيوف والقتل والأسر، والانتصار والدماء والأشلاء والوقائع، والعبارات جزلة، موجزة، ضخمة المعنى، تحكي ما يختلج في النفس الأبيّة الإيجابية الطَاهرة. يقول الجاحظ في هذا: « من أراد معنى كريما فليلتمس له لفظا كريمًا، فإن حقّ المعنى الشريف، اللفظ الشريف، ومن حقهما أن تصونهما عما يفسدهما أو يهجنّهما » [2].

فالشاعر الفاتح مرة مفكر منطوٍ على نفسه، منفعل بما يحدث حوله وما يهفو إليه، مريد معتزم إلى ما تصبو نفسه إليه، وفي كل هذه الحالات، نفسه هي هي، إلا أنها تلبس لكل حال ثوبا يليق بالمقام الذي هو فيه، فالفكر يشدّ أزر العاطفة وهي توقظه، وهما يبعثان الإرادة ويحتاجان إلى وسيلة لازمة لنقل أو إظهار ما في نفس الأديب من تلك العناصر المعنوية، فالعاطفة القوية للشاعر الفاتح احتاجت في تصويرها إلى عناصر فنية لتصوير القوة الإنفعالية في نفسه، فاحتال وكوَّن من هذه العناصر الحربية لغة فنية هي كفاء ما في نفسه من شعور فصوّر

---

[1] الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. ص 74.

[2] الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج 1. ص 105.

اصطدام القسيِّ والرماح، وملاقاة الفرسان والأقران، وتساقي المنون، والثبات في مواطن الهلاك، فكأننا نسمع قعقعة السلاح، ونشهد مطاردة المقاتلين ومصارع المقتولين، وهذا لجزالة الأسلوب، ومتانة اللغة، وقوة العبارة وحسن التركيب والتعبير والتصوير.

" فهناك وحدتان في النص الشعري: وحدة نفسية ووحدة أدبية والأولى تتوافر في طبيعة النفس الإنسانية وتتراءى لنا مظاهر شتى تتعاقب عليها فكرًا أو عاطفة أو إرادة. وأيّ قوة في إحداها تفيد سائرها، ما دام الشاعر حريصا على حفظ التوازن بينها، والثانية تظهر في طبيعة الكلام، وصدوره عن نفس البليغ واشتماله على تلك العناصر الأدبية، التي هي في الأصل عناصر نفسية صالحة لتثقيف الإنسان و تهذيبه من أيّة طبقة كان وفي أيّة بيئة من البيئات " [1] .

وخلاصة القول أن الشاعر الفاتح إختار أصفى الألفاظ الملائمة للمعاني التي قصدها، فمثلت حركاته وأصواته، وانفعالاته وعواطفه، كما استغلها في وصف المشاهد الطبيعية ومظاهر البيئة الجديدة، فكانت قويّة صارمة في الإنتصار والحماسة، وليّنة في الرثاء والحنين، فجاء أسلوبه رصينا، محكمَ النسيج، مسبوكا بكل عفوية وتلقائية، لا حشو فيه ولا تعقيد.

[1] **الشايب، أحمد. الأسلوب. ط 6. ص 73.**

الصور الأخيلة :

كان أدب الفتوح موجزًا لما يستدعيه الموقف، وتمليه ظروفه، فأعباء الفتح ثقيلة، وكذا عدم الاستقرار فالعرب لم يكونوا قد عرفوا مواطئ أقدامهم من هذه الحياة الجديدة، ولا مدى انسياقهم مع ألوانها وزخرفها لذلك كانوا وكأنما يحملون عصا الترحال فوق ظهورهم، وحياة كهذه الحياة، التي تثقلها وترهقها الواجبات والأعباء، وتناديها الأصوات من كل مكان، وتلحّ عليها الفتوح من كلّ جانب، لم تكن تسمح قط بالإطالة أو التمهل أو تشقيق الكلام. وإنما يبدو أنها كانت تدفع إلى هذا الإيجاز دفعا وتضطر إليه اضطرارًا.

فلم يكن الشاعر الفاتح- من خلال ما مرّ بنا من أشعار- ليسرف في التشبيه أو يلّح عليه، ولا يتصيّد الإستعارات ولا يستكثر من الصور البيانية، فشعره تلقائي مباشر، موجز - في معظمه - ويعود هذا -في رأيينا - لإنشغاله بالفتوحات، فأكثر ما كان ينطلق به الشعراء في الفتوح، هذه الأبيات القليلة والمقطوعات القصيرة التي يصبون فيها كل عواطفهم وانفعالاتهم، فكانت غالبة على ألسنتهم، مستبدة باهتمامهم، فأما القصائد الطوال فقد كانت قلّة.

كما نستنبط من أشعارهم – في اعتقادنا – أن الشاعر – في أغلب الأحيان – يذكر الفكرة دون التمعن فيها أو الإلحاح عليها، بالتعمق فيها وتقليبها على كل وجوهها، واعتصارها، والكشف عن مكنوناتها بل وينطلق بها انطلاقات يمليها عليه ذكاؤه ونجابته، لعدم قدرته على الإختلاء إلى شاعريته وإطلاق عنان خياله ليصور ويتخيل، فشعره مطبوع، لا تصنع فيه ولا تكلف وما يهمّه هو التنفيس عما في خلجاته ووصف انفعالاته وأهوائه، وعواطفه ومشاعره.

" كما تخلى الشاعر عن تقليدية المقدمة، ولم يسرف في التصوير، ولم يقف طويلا ليجمع أطراف الصور أو يدقق في رسمها بقدر ما جاءت معبرة بتلقائية واضحة عمّا يحسّه ويراه في عالم الحرب، مما غلب على القصيدة الجانب التقريري، الذي يعدّ سمة مشتركة بين شعر الحروب والغزوات والفتوح " [1]ذلك أن الإرتجال أو العفوية التي قد تبدو في هذه المواقف، لا تردّ إلى ضعف الشاعر، أو تعكس الإستهانة بمكانته، بقدر ما تردّ إلى طبيعة الموقف، وما يتطلبه من سرعة فنية لا تسمح بتلك الأناة المطلوبة في صنعة الصورة وعرض جوانبها فالشاعر يسعى إلى المشاركة في الفتح لنشر العقيدة، وهو يطيع أوامر الله ورسوله وأولي الأمر، وكلها قضايا لا تتطلب منه صورًا شعرية، أو خيالا يسبح به هنا وهناك، ليجمع شتاتا وأطرافا نقف عندها، ومن هذه القاعدة كانت انطلاقة الشاعر المسلم في الفتوح الإسلامية ،حتى بدا أكثر ميلا إلى الإيجاز وسرعة الأداء، يكاد يكتفي من أدواته الفنية بما يتطلبه الموقف، وقد ظهرت الصيغة القصصية أحيانا وسيلة بيان في القصيدة، وفي إبداء الشاعر بطلا ومعه الرفاق ممّن كتبت لهم الشهادة ،قبل استكمال عناصر القصة لديهم حتى النصر، وبذلك ترك الموقف ينطق بما يتسق معه، ويعبر عنه شكلا ومحتوى على مستوى القصصية أو غيرها من المقومات الفنية.

[1] التطاوي، عبد الله. أشكال الصراع في القصيدة العربية في صدر الاسلام. ج2. ص 24.

القالب الشعري :

الشكل جانب من جوانب البناء، من حيث الكلمة والجملة الشعرية في إطار الصورة والموسيقى التصويرية، « وهناك نظرة لا تزال مطروقة منذ طرقها حازم القرطاجني فيما اسماه بتناسب المسموعات ومحورها العلاقة بين النغم والموقف أو بعبارة أوضح العلاقة بين بحور الشعر والتفعيلات، وبين الموقف الفكري أو مضمون العمل الأدبي » [1].

فالوزن شيء ضروري للشعر، فهو عنصر من عناصره الأصلية، التي لا تستقيم حياة هذا الفن بدونها ويؤكد هذه الحقيقة قول ابن رشيق القيرواني: " الوزن أعظم أركان الشعر وأولاها به خصوصية " [2].

وعند تفحصنا لشعر الفاتحين في صدر الإسلام، نجده – في اعتقادنا – يتراوح بين قصيد ورجز حسب نفس الشاعر، وقدراته الإنفعالية، وطبيعة الموقف.

والرجز من ناحية الشكل هو تصريع لجميع أبيات النص الشعري، وُعرف التصريع عند الشعراء القدامى في مطالع القصائد، ولعل – في رأيينا– جنوح بعض الشعراء الفاتحين إلى صياغة أفكارهم باتخاذ بحر الرجز قالبا لها، يبثون من خلاله قيمهم الجمالية إلا لما يوفره من تماسك جيّد وإيقاع رتيب ورنَّة قويّة مؤثرة، وكذلك لخفته، وسرعة حفظه لقرب نغمه من الغناء، ولان الرجز هو الصورة القريبة للسليقة الشعرية التي كان يتنفس بها العاديون من الشعراء ،ومن الذين يريدون أن يقولوا الشعر، على حين كانت القصائد هي سبيل الممتازين من الشعراء، وطريقهم إلى التعبير والتصوير.

---

[1] فهمي، ماهر، حسن. قضايا في الأدب والنقد. ص 29.

[2] ابن رشيق، أبو علي الحسن. العمدة. ج 1. ص 134.

ومن المؤكد أن طبيعة الحياة التي عاشها المسلمون في أول العهد بالفتوح، لم تكن لتساعدهم على التطويل في نظم الشعر، فقد استأثرت هذه الفتوح باهتماماتهم الداخلية، واستنفدت قواتهم.

فالأوزان التي اختارها الشعراء الفاتحون موافقة لزفرات قلوبهم المعذبة من الفراق، لذلك استفحل الرجز وبرز على الساحة الأدبية لشعراء الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام، فكان يقوله الشاعر حين يخرج للحرب، أو حين يتصدى للمبارزة، أو حين تهتف به منازعه الداخلية أن يغني لنفسه غناء قريبًا، دانيا، سهل التأنِّي، ولا يبدو – في رأيِّنا – كبيرا لحظ من الأصالة الفنية إلا أنه كان – على كل حال – لونا من التعبير الأدبي الذي رافق أحداث الحياة العربية في القرن الأول.

" فاختيار البحور يتم بطريقة لا شعورية نفسية تتم خلال التجربة الفنية التي يشبهها النقاد في مراحلها المختلفة، بمراحل تكوين الأجنّة، ثم استكمال الشكل حتى الميلاد " [1].

فبانتشار الإسلام، وتطور البنية الإجتماعية في الحواضر الكبرى التي فتحها المجاهدون البواسل، برزت الأوزان القصيرة أكثر من غيرها، وانساقت مع الذوق الجديد الذي فرضته ظروف العصر، واستدعته ملابسات الحياة، فالفتوحات الإسلامية فتحت صفحات جديدة في حياة المسلم، بما فيها البيئة وجوانب الحضارة الفارسية والرومانية، من مطعم وملبس ووسائل الحروب وفِيَلَة على جبهات القتال وغيرها، لذا نجد بحر الوافر والمتقارب والرمل والسريع هي البحور التي طغت على أشعار الفاتحين، الذين أخذوا على عاتقهم دين فتح تلك الأمصار، وتوسيع رقعة العالم الإسلامي.

فهذا الشاعر الفاتح الذي لم يضع عن عاتقه عصا الترحال، لم يكن لديه من الوقت الكافي ليصيغ بحورًا ذات نَفَس طويل لأشعاره إلا إذا كان مسجونا أو مأسورًا أو راثيا، كقصيدة ضرار بن الأزور في أسره أو رثاء

[1] العشماوي، محمد زكي: فلسفة الجمال في الفكر المعاصر، ص 84.

مالك بن الريّب نفسه وهما قصيدتان سبق تحليلهما في الفصلين السابقين، أو مرثية أبي دؤيب الهذلي لأبنائه الخمسة الذين هلكوا بالطاعون في مصر وغيرهم.

وهذه النماذج لبعض الرجّاز الفاتحين، الذين استؤنست أشعارهم، وانعكست على تقاطيع أبياتها ملامح الجمال سحرًا في الأنغام، وعذوبة في القافية كقول زهير بن عبد شمس:

أنا زهير وابن عبد شمس طعنت ذا التاج رئيس الفرس

رستم ذا الثروة والدمقس فقد شفيت اليوم منه نفس [1]

وقال عبد الله بن رواحة:

يا حبذا الجنة واقترابها طيّبة باردة شرابها

والروم روم قد دنا عذابها كافرة بعيدة أنسابها

حتى إذا لقيتها ضرابها [2]

قال خالد بن الوليد وهو يتقدم الكتيبة الموجهة إلى معرّة حلب، وشن بها الغارة على بلدة " العواصم " الرومية:

أخذتها والملك العظيم واتني بحملها زعيم

لأنني كبش بن مخزوم وصاحب لأحمد الكريم

أسير مثل الأسد الغشوم يا ربّ فآرزقني قتال الروم [3]

---

[1] ابن آعتم، أبو محمد أحمد. الفتوح. ج 1. ص 277.

[2] ابن هشام، عبد الملك. السيرة النبوية. ج4، ص 14.

[3] الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر. فتوح الشام. ص 41.

وها هو يحرض أصحابه على الخروج إلى العدو فيقول:

هبّوا جميع إخوتي أرواحًا نحو العدوّ نبتغي الكفاحا

نرجو بذاك الفوز والنجاحا إذا بذلنا دونّه أرواحا

ويرزق الله لنا صلاحًا في نصرنا الغدوّ والرواحا [1]

وقد أدرك النقاد العرب القدماء ومنهم ابن رشيق الذي يقول " أن القافية جزء أساسي من الوزن، فهي شريكهُ في الإختصاص، كما يقول بعضهم، وهو الجالب لها ضرورة ومشتمل عليها، وذلك لأنها تتحكم في ضبط الإيقاع، واتزانه في آخر كل بيت شعري " [2].

فمن خلال هذا التعريف لابن رشيق، نتوصل إلى أن هناك علاقة وطيدة بين الوزن والقافية، وبينهما وانفعال الشاعر وحالته النفسية والشعورية، فالناحية النفسية والشعورية تتعلق بعملية الإبداع الفني، إذ انه يحدث نوعا من التوازن بين جموح العاطفة، ومحاولة السيطرة ، بفرض نظام عليها، يتمثل في الأوزان والقوافي التي تعكس شخصية الشاعر، وتصوّر انفعالاته وحالته النفسية والشعورية.

ويبدو – في رأيينا – أن حالة الشاعر النفسية أثناء الفتوحات الإسلامية، بما اعتراها من اضطراب، قد انعكست على وزنه وقافيته، وهذا التنوع الإيقاعي يلائم تنوع دَرجات انفعال الشاعر بين الإرتفاع والإنخفاض، كما أسلفنا ذكره.

---

[1] **الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر. فتوح الشام. ص 174.**

[2] **ابن رشيق، أبو علي الحسن: العمدة، ج 1، ص 151.**

إن أهم مظهر طرأ على وزن وقافية شعر الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام يتمثل بصورة عامة فيما يلي:

- "شيوع الأوزان المجزوءة واستخدام الشعراء لها " [1].
- عذوبة القافية ورقتها تبعًا لخفة البحر واستخدام الشعراء لمعجم لغوي يحمل – غالبا – طابع العصر في سهولة العبارة واستئناس الألفاظ.
- جنوح عدد من الشعراء إلى صياغة أفكارهم باتخاذ بحور خفيفة قالبا لها، أو في شكل أراجيز.

وخلاصة القول، فإن الشعر في هذه الحقبة الزمنية، وتحت وطآة هذه الظروف، احتفظ بربيع شبابه، وغض إهابه، ورصانة عباراته وجزاله كلماته، وقلّة ولوع شعره بالغريب الموغل في الغرابة، مما يكدّ الذهن، ويرهق الفكر، لأنه كان يصطفي ما حلا وعذب من الأساليب والألفاظ والأوزان.

[1] عروات، أحمد، فلاق. تطور شعر الطبيعة ين الجاهلية والإسلام. ص 152.

الخاتمة

وهكذا يصل بنا التجوال عبر محطات الفاتحين من مجاهدين بوسائل وشعراء على جبهات القتال إلى الخاتمة فذاك يشهر سيفه ورمحه، وهذا يوجه لسانه وسنانه، وقد كانت فترة صدر الإسلام غنية بالفتوحات الإسلامية، وهذا لنضارة الدين الجديد بكل عنفوان تعاليمه، التي عمرت قلوب المؤمنين، وما فتحوا البلاد باحثين عن مغانم، ولكن محررين، هداة ورعاة ، وحملة مبادئ نشروها بين الناس، وهذا كله كان ميلاد عصر جديد، وقد تميزت الحياة السياسية آنذاك أي في عصر صدر الإسلام، بمنازعات، ومناوشات، وحروب بين المسلمين والمرتدين،والمنافقين ،و الكتابيين والكفار، فكانت فترة ساخنة في حياة الإسلام، تحمل فيها المسلم أعباء ثقيلة رفع راية الإسلام،و الذود عن حوضه وعياله، و تطهير الحدود الإسلامية من دنس أولئك الرافضين المحاربين لهذا الدين الجديد فكانت غزوات ومعارك كثيرة بينهما أشهرها ما ذكرته وهي غزوة بدر (2هـ) غزوة الخندق (5هـ) غزوة حنين (8هـ) ثم فتح مكة (8هـ) مكة التي أخرج منها النبي صلي الله عليه وسلم وهي مسقط رأسه ،ومنبع أخلاقه، ومهبط وحيه، عاد إليها فاتحا، مرفوع الرأس، وقد أعزه الله وقدر له النصر بعد الخيبة، و القوة بعد الضعف فبذر النبي صلي الله عليه وسلم البذرة الأولى في سبيل الفتوحات الإسلامية، وجاء بعده رجال فضحّوا بالنفس والنفيس في سبيل الله، وفي سبيل نشر الإسلام والقضاء على الكفر والكفار، تحمّلوا عصا الترحال، ضاربين في الأرض، غير مباليين بالجيوش العرمرمة، والأسلحة الطنانة والأمم المتحضرة، غايتهم وأهدافهم واحدة، فساندتهم قدرات الله سبحانه وتعالى، وكان النصر حليفهم.

وجاء بعد وفاة الرسول صلي الله عليه وسلم ، أبو بكر عبد الله بن أبي قحافة خليفة فقضى على المرتدين و أنقد العرب في العراق والشام من براثين الفرس والروم ليتولى الخلافة بعده عمر بن الخطاب صاحب الحزم والعدل، ففتح المسلمون في أثناء خلافته العراق والشام ومصر وفارس، فأسس دولة ذات قوة وهيبة.

وبعد قتله، تولى عثمان بن عفان، فوسّع رقعة الفتوحات الإسلامية في مصر وليبيا، كما أعاد ترتيب القرآن الكريم بعد أن جمعة أبو بكر الصديق، تولى على كرسي الخلافة بعد عثمان ،علي بن طالب ثم معاوية، ورغم نشوب الخلافات، ونشأة الأحزاب السياسية، وحوك المكائد ونسج الفتن إلا أن مسيرة الإسلام بقيت شاقة طريقها نحو فتح جديد ونصر مبين، وقد ساعدت عدة عوامل على هذه الانتصارات والفتوحات منها، تغلغل الإيمان في قلوب المجاهدين، توقهم إلى الإستشهاد للفوز بالجنة، وإحكام خططهم في مواجهة الفرس والروم وكذا عدلهم وزهدهم وشجاعتهم، وأخلاقهم الرفيعة، وكذاك نقمة رعايا الفرس والروم على حكامهم، لما رأوه في الدين الجديد من عدل وقيم رفيعة ،وهم الذين عانوا من سلطة الأجانب أجيالا متطاولة وخاصة في مصر والشام .

هذا مجمل ماذكرته عن الحياة السياسية في صدر الإسلام أما عن الحياة الإجتماعية في نفس العصر فإن الإسلام غرس في نفوس المؤمنين شيما سامية، وخلالا راقية فدعا إلى طهارة النفس، ونبذ الفواحش، ما ظهر منها وما بطن والإرتفاع عن الدنايا والنقائص، فرسم طريق الفضيلة وحارب سبيل الرذيلة، ومنح الحقوق لأصحابها، وحث على ضرورة العمل لأنه عبادة، فسما بالمؤمن إلى أغلى مراتب الخير والهداية ،هذا عمّا ذكرته في مدخل هذا البحث كتوطئة لما يليه من فصول أما عن الفصل الأول فلخصت في عنصره الأول الفتوحات الإسلامية تاريخا حيث انتظمت الموجة الأول من حركة التوسع في عصر صدر الإسلام، فتقدمت القوات الحربية الإسلامية إلى حدود الشام وفلسطين في مواجهة نفوذ الدولة الرومانية، وإلى حدود العراق لمقاومة الدولة الفارسية فوّجه أبو بكر إلى الشام أبا عبيدة بن الجراح إلى حمص، يزيد بن أبي سفيان إلى دمشق وعمر وبن العاص إلى فلسطين، وشرحبيل بن حسنة إلى وادي الأردن، وقد بدأت حركة التقدم

في أرض العراق على يد المثنّى بن حارثة الشيباني فلما بلغت مرحلة دقيقة أنجده الخليفة بخالد ين الوليد، فتقدم إلى الحيرة فالأنكار فعين التمر، وبينما كان خالد بن الوليد في تقدمه في قلب العراق، دعا إلى إنجاد قوات الشام، و ارتد جيش المثنى إلى أطراف الجزيرة العربية، وأعطيت حركة التوسع في الشام بذلك مداها، وكان اهتمام المسلمين بغزو الروم وهو بالدرجة الأولى لتخليص شعب الشام وفلسطين من الإحتلال وقد واجه الروم قوات المسلمين بزحوف ضخمة اضطرتها إلى توحيد قواتها، واتجه خالد من العراق لمساندتها إلى قطع المغازة بين العراق والشام في رحلة متميزة، ثم جمع القادة على خطة موحدة، وواجه المسلمون الروم في معارك " أجنادين" في ثلاثين ألف مسلم في مواجهة مئة ألف، وفي معركة " دمشق " دخل المسلمون المدينة من ناحيتين؛ دخل خالد من الباب الشرقي وأبو عبيدة بن الجراح من باب " المبانية " سلميا سنة 14هـ ،و عزل عمر بن الخطاب خالد من الرئاسة بعد معركة أجنادين وتلقي خالد عزله راضيا، وعمل جنديا تحت قيادة أبي عبيدة وفي معركة (اليرموك) كان عدد المسلمين أربعا و عشرين ألفا بقيادة أبي عبيدة ،و الرومان مائتي ألف بقيادة جبلة بن الأيهم وانتصر المسلمون في كل هذه المعارك بالرغم من تفاوت العدة والعدد، وتوالت الانتصارات حين استولى أبو عبيدة وخالد على حمص وحماه، وقنسرين واللاذقية وحلب، ودافع الروم عن بيت المقدس دفاعا شديدا، فلما اشتد حصار المسلمين له، طلبوا الصلح على يد الخليفة نفسه، ليكتب معهم عهدا، وقد قدم عمر بن الخطاب وكتب بنفسه معهم كتاب الأمان، ثم استسلمت مصر لقوات الإسلام، وقد سارع المصريون إليه خروجا من ظلم الرومان، بعد أن جرت المعارك في أكثر من موقع، وهزم جيش الرومان، وتم الصلح بين عمر وبن العاص والمقوقس سنة 21 هـ على دفع الجزية وحرية العبادة ورحيل حامية الروم، ولا شك أن السوريين والمصريين قد رحبّوا بالمسلمين، وهم عرب من بني جنسهم تخلصا من الغاصبين، وفي فارس استانف

المسلمون الزحف على فارس وكانت معركة القادسية الشهيرة سنة 16 هـ بقيادة سعد بن أبي وقاص وكان عدد المسلمين عشرة آلاف في مواجهة قائد الفرس رستم ذا الحاجب في مئة وعشرين ألف مقاتل وفي المدائن على ضفتي دجلة، إنتصر المسلمون على قلة عددهم وسقطت العاصمة عام 16هـ.

وفي معركة جلولاء التي أعد "يزدجر" عظيم الفرس فيها آخر محاولاته، وكانت من اعنف معارك الفرس، لكن المسلمين قد ثبتوا، فكتب لهم النصر، وفي معركة "نهاوند" سنة 19هـ، كان النصر النهائي، فأطلق عليها "فتح الفتوح" وكان الفرس في مائة ألف بقيادة "الفيرزان" والمسلمون بقيادة النعمان بن مقرن المازني الذي ولاه عمر بن الخطاب بعد عزل خالد بن الوليد، وسقط النعمان في مطلع المعركة وخلفه حذيفة بن اليمان على القيادة.

وفتحوا فارس وهي احدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرّوا في عقله وأهله، وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والدينية النصرانية بعدما خلّف الفينيقيون والكنعانيون والمصريون واليونان الغسانيون آثارا ظاهرة في العادات والتقاليد والمعتقدات والنظم، وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية، وملتقى الفلسفتين الشرقية والغربية. " وفتحوا بلاد المغرب الى جبل طارق ثم ما وراء النهر إلى كشغر، وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية، ويدينون بأديان سماوية وأرضية ويتكلمون لغات فارسية وقبطية وعبرية ويونانية ولاتينية فأخضعهم العرب بهم إخضاعا ماديا وأدبيا وروحيا عن طريق الفتح" [1] واستطان كثير من العرب في البلاد المفتوحة، وراحوا ينشرون فيها دينهم ولغتهم وتقاليدهم وآدابهم، كما استفادوا من حضارات الأمم التي اختلطوا بها، فاتسعت معارفهم، ورَحُبَت آفاقهم، وكان من ذلك التفاعل هذا الإمتزاج

[1] الزيات، أحمد حسن . تاريخ الأدب العربي. ص 67

العَجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقي الإنسان.

وهكذا، فلم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آنيا من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب، وإنما أثرَّ فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح التي كان لها أثر لا يحقّ لباحث أن يغفله.

وقد أثرَت هذه الفتوحات الإسلامية المكتبة العربية، بما رصدلها من أشعار وثقت لها، فظهرت أغراض شعرية خلال هذه الفتوحات الإسلامية، في صدر الإسلام، كالإشادة بالدعوة الإسلامية، ورثاء الشهراء والأشلاء والحض على القتال للنصر والإستشهاد في سبيل الله، ووصف الغربة والحنين إلى الديار وغيرها وبدت معانيها إسلامية محض، متأثرة بالإسلام والقرآن الكريم. تأثرا ظاهرا في الأسلوب والأداء والألفاظ، فهجر الشاعر الحوشي والغريب والمبتذل، وولّد كلامه وعواطفه من العقيدة الإسلامية.

أما في النثر، فإن الخطابة برزت على الساحة الأدبية، لحاجة الناس إليها، فاهتم بها الخطباء متأثرين بخطب الرسول $ متخذين منها نماذج للإهتداء بها، مقتبسين المعاني والألفاظ من القرآن الكريم.

فكانت فترة غنية بما جادت به قريحة الشعراء والخطباء، فالشاعر الفاتح عبّر عن كل ما اختلج فؤاده، ونازع نفسيته، فلم يبخل بشاعريته، فوصف بطولاته وأمجاده، ونقل مشاعر غربته وحنينه، ومواجع فراقه وأسره فبكى واستبكى، أشاد ورثى، فرح وسرَّ، فكانت عواطف متذبذبة، ومضطربة أملتها ظروف حياته الجهادية ومواقفه، ومواقعه، وممّن أنطقتهم الفتوح إلى جانب الشعراء الفاتحين، أهل وذوي وآباء بعض المجاهدين البواسل الذين هجرهم فلذات أكبادهم سعيًا لنيل الشهادة والظفر بالجنّة، فانقسموا بين باكٍ، نائح، غير قادر على الفراق، ومحرِّض على الجهاد، داعيا إليه.

كما تباكوا فيما بينهم، حتى الصحابة رضوان الله عليهم عبروا عما في أنفسهم بالبيت أو البيتين، ومما ذكرته في الفصل الثاني كذلك، أولئك الفاتحين الذين رثوا أشلاءهم وأعضاءهم المقطوعة بفعل تداعيات المعارك، وآخرون يلوكون آمالهم وأحلامهم ويصادقون غربتهم وآسرهم، فانسابت هذه الإنفعالات أشعارا نديّة، كان لها وقع كبير في النفوس، لتلك العواطف المتمزقة، وتلك العيون الدامعة، فأذكت هذه الإنفعالات جذوة الشعراء، ورحوا يخطّون بعبراتهم ما تأججت به قلوبهم ومن هنا فُتِحت أبواب جديدة، تعرضت لها في الفصل الثالث، فتغلغلت في أعماق أولئك المجاهدين الفاتحين الذين شعروا بالغربة، فامتزج الإغتراب المكاني بالإغتراب النفسي، وحنُّوا إلى مرابعهم الأولى، وتشوقوا إلى كل ما في أوطانهم التي غادروها إلى البلاد الجديدة فاتحين، ناشرين للدين الإسلامي السمح، فعبروا عن أصقاع أنفسهم، وتمزق وجدانهم، وشرخ عواطفهم وعن إحساسهم بالضيق والسأم والضجر. فكانت آهات وزفرات حللت خلجات أفئدتهم القلقة، المتأزمة واستخلص بواطنها المستترة وإلى جانب بابي الغربة والحنين وأثرهما النفسي فيما جادت به قريحة الشعراء الفاتحين من أشعار جميلة، باب وصف الشاعر الفاتح فيه مظاهر البيئة الجديدة، حيث لفت اِنتباهه كل ما فيها، من قصور وكنائس ونقوش ورخام، وبرد وثلج وفيلة وغيرها، وكذا وسائل حرب العدوّ من فرس وروم.

وفي الفصل الرابع والأخير، تعرضت للغة الشعر خلال الفتوحات الإسلامية، فكانت الألفاظ على بساطتها دالة، مؤثرة، هادئة، ذات وقع في النفس، سواء أكان الشاعر يشيد أو يصف، يرثي أو يحن، فجاءت منسابة، متألقة، منسجمة فيما بينها، لا حشو فيها ولا تعقيد، كذلك أسلوب هذا الشعر، فجاء محكمًا، رصينا، قويا، موحيًا، رغم ما كان ينتاب الشاعر الفاتح من اضطراب وتذبذب مكاني ونفسي، إلا أنه استطاع أن يتحكّم في حبل أفكاره، ومرتع ألفاظه، ومخرج عباراته سواء في القصيد أو المقطوعة أو البيت أو البيتين.

وقد تنوع الأسلوب بين الخبري والإنشائي طبقا للغرض الأدبي وللظرف الذي قيل فيه ذاك الشعر، وقد ظهر النمط القصصي أحيانا وسيلة بيان في القصيدة.

أما عن الخيال، فلم يكن الشاعر الفاتح قادرًا – لظروفه القتالية – على أن يحلل صوره، ويبتعد بخياله عن المكان الذي يحويه فيجمع جزئيات الصورة في مخيلته، ويخرجها في ثوب أنيق، فجاءت صوره عفوية تلقائية، لأن غايته هي إيصال ما تعجّ به نفسه من ذكريات، وما تطمح إليه، وتتوق إليه من جزاء، وقد صبّ هذه المشاعر والعواطف والأفكار، في قالبين، تنوعا بين القصيد والرجز، فبثّ من خلالهما قيَمه الجمالية، كما تنوعت قافيته طبقا لنفسيته، فعذُبت ورّقت تبعا لخفة البحور التي كان ينظم على تقاطيعها.

أما عن نتائج هذا البحث، فإن هذه الدراسة النفسية لشعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام جديدة – حسب رحلتي عبر المكتبات – كذلك الإلمام وجمع بعض الأشعار المغمورة التي قيلت أثناء هذه الفتوح واستقصاء مناسباتها، وتحليلها، إضافة إلى أن هذا، فالشاعر الفاتح جاب كل محطات هذه الغزوات والفتوحات، فنقل في شعره حياته بكل تفاصيلها، والبيئة المحيطة به، حتى الصحابة رضوان الله عليهم ساهموا بأشعارهم وأراجيزهم في الحض على الجهاد، والترغيب فيه، وإظهار ثوابه عند الله، كعبد الله بن رواحة وخالد بن الوليد، اللذين سبق الإشارة إليهما في هذا البحث.

وما لفت اِنتباهي، وأنا أقلب صفحات تاريخنا المجيد بحثا عن الثروة الأدبية التي خلّفها شعراء مجاهدون بواسل، هو إغفال التوثيق، فكثير من الذخائر التاريخية والأدبية التي تذكر البيت أو البيتين أو المقطوعة دون ذكر مناسبتها، ولا تاريخها، وكذلك تناثرها عبر صفحات الكتب من غير تسلسل زمني.

كما حزّ في نفسي، مرور بعض الأدباء والكتاب من العصر الجاهلي إلى العصر الأموي، متجاهلين عصر صدر الكلام ، وما أنجبه من انتصارات هامة في التاريخ الإسلامي ، وما جادت به قريحة الشعراء آنذاك ،

ككتاب ، " شعر الحرب في أدب العرب " للدكتور زكي المحاسني ، وكذلك اختلاف المؤرخين والأدباء في نسبة الأشعار إلى أصحابها ، أو عدم ذكر صاحبها لجهلهم به ، فهذا مطاع الطرابيش عند جمعة وتحقيقه لشعر عمر وبن معد يكرب الزبيدي في كتابه "الشعر" يقول في صفحة 175 " ملحق بشعر منسوب إلى عمر وبن معد يكرب الزبيدي لم تثبته في ديوانه إذ كانت نسبته إليه ضعيفة " .

وفي صفحة 178 يُعَنْوِنُ في أعلى الصفحة " الشعر الوارد في كتاب فتوح الإسلام ببلاد العجم وخراسان **المنسوب** إلى الواقدي ".

وهذا النعمان عبد المتعالي القاضي في كتابه " شعر الفتوح الإسلامية " يخصص في الفصل الثالث عنصرا بعنوان " **أشعار كثيرة مجهولة القائل** ".

وما يلفت الانتباه أيضا هو أن الجهاد سرى في عروق المؤمنين كبارا وصغارا ، فهبّوا إليه غير مكترثين بنتائجه ، رغم أنهم يواجهون قوى عاتية هي الفرس والروم، وكذا رغبتهم في الاستشهاد كانت ملحة للظفر والفوز بالجنة، فنقموا على أعدائهم، وأذاقوهم المر .

أما في الرثاء، فالجديد في هذه الأشعار، هو رثاء الأشلاء والأعضاء المقطوعة، فالأحشاء بُعْثِرت والأيد والأرجل بُتِرت، والعيون فُقِئَت في ساحات الوغى، ولكن هذا لم يثنِ من عزيمة وإرادة المجاهدين وراحوا يرتجزون وهم يلفظون أنفاسهم الأخيرة ، ويتمنون الأجر من الله.

وهؤلاء آباء، أحسّوا بالضعف والفاقة، فسالت دموعهم ساخنة ترجمتها أحاسيسهم وعواطفهم على فلذات أكبادهم الذين خرجوا مجاهدين فاتحين ، ففاضت أفئدتهم شعرا حزينا مؤثّرا ،كما رثى الشاعر الفاتح الخمرة لمدى الحميمية التي تربطه بها لما مُنِع منها، وهو لون جديد لم يسبق إليه .

أما عن الشكل ، فإن بعض القصائد ظهرت فيها النبرة القصيصة وإن كانت غير مستوفية للخصائص الفنية للقصة ، كقصيدة ضرار بن الأزور ، ومالك بن الريّب .

ومال بعض الشعراء الفاتحين إلى الرجز لما فيه من تلقائية وعفوية خاصة في التحميس للجهاد والتغني والنصر كأراجيز خالد بن الوليد، وأبناء الخنساء في معركة القادسية وقد سبق الإشارة إليها.

وفي الأخير، لا أدّعي أنّي ألممت بكل ما ينبغي الإلمام به في هذا الموضوع، ولا أزعم أنني جئت بجديد خارق، فالمهم – بالنسبة لي – أنني أسهمت ولو بجزء ضئيل في رسم نهج من يأتي بعدنا من الباحثين وفي توجيه مجهوداتهم إلى جادة الطريق ، وأملي أن يُدرس هذا الموضوع من جوانب أخري لما فيه من متعة وغبطة والقارئ يقرأ لهذا الشاعر الفاتح الذي ، يحمل السيف والرمح بيد، والقلم والقرطاس باليد الأخرى وسدّد الله خطانا إلى ما يرضاه.

ويمكن إجمال ثمار البحث في النقاط التالية :

- **نظم الشاعر الفاتح أشعارًا في صدر الإسلام عبَّر فيها عن مواقفه، أهواله وأهوائه، لكن معظمها مبعثر بين صفحات كتب التاريخ والسير والآداب على شكل بيت أو بيتين أو مقطوعة، وقليلةٌ هي القصائد الكاملة.**
- **سجّل الشاعر الفاتح في صدر الإسلام الروح الإسلامية العالية، المتغلغلة في نفسه، فالمجاهد المسلم يفارق دياره ومرابعه قاصدًا العدوّ غازيا وفاتحا، غير مكترثٍ بمن ترك وراءه من زوجة وأهل.**
- **النصر أو الاستشهاد هو هدف كل من حمل السلاح مجاهدًا في سبيل الله، وكم يتمنى الشهادة وهو في ساحة المعركة، ويسعى إليها جاهدًا، إلا أن يشاء الله، ويغبط من يستشهد من إخوانه المسلمين، فكان التنافس على أشدّه بين المسلمين على الاستشهاد في سيل الله، للظفر بالجنة.**
- **المعروف عن الرثاء هو ذكر مناقب الميّت والبكاء على فراقه، وخلال الفتوحات الإسلامية، كان هذا، لكن أخذ الرثاء منحى آخر، وشقّ سبل أخرى، تمثّلت في رثاء الأشلاء والأعضاء المقطوعة، من جراء الحروب والغزوات، فهذا يبكي رجله المقطوعة، وهذا يده المبتورة، وذاك عينه المفقودة، وأحشاءه المبعثرة.....**

– وكذلك ظهر لون جديد في الرثاء هو رثاء الخمرة والبكاء عليها، هذه الخمرة الذي ألفها العربي، عزّ عليه الاستغناء عنها، فلما أمر أمير المؤمنين – خلال الفتوحات الإسلامية – بحرق الحانات، حنَّ إليها ورثاها كفلذة الكبد.

- عند جمعي لمادة هذا البحث، وقعتُ على أشعار تتدفق حزنا ووَلها، مرارةً وأملا من ينابيع الحب والمودة، إنهم الآباء الذين اكتووا بآثار الغربة، لما اغترب عنهم أبناؤهم، وقطعوا الفيافي والصحاري، قاصدين أعداء الإسلام ،فاتحين فأحسّوا بشرخ في عواطفهم، وجرح في جوانحهم، وحنّوا إلى فلذات أكبادهم، فتنفسوا آهات وأنّات وزفرات ساخنة ترجمتها أشعارهم.
- ومن الآباء من زجّ بأولاده إلى ساحات الفداء، مجاهدين، محررّين فتشرّفوا بهم، مهللّين، فرحين بتضحياتهم في سبيل الله، وفي سبيل الفتح المبين، كالخنساء مع أبنائها الأربعة في معركة القادسية.
- باب شعري ممتع جديد، ظهر خلال الفتوحات الإسلامية في صدر الكلام، هو باب الحنين إلى الأهل والأوطان، المرابع والخلان، وقد انسابت هذه الأشعار فيه غزيرة، وفاضت الدموع رقراقة وشبهه النقاد بوقوف الشاعر الجاهلي على الأطلال وحنينه إلى من فارقوه .
- كما أن خروج المسلم الفاتح إلى الديار الجديدة، والطبيعة الجديدة، جعله يحنّ إلى موطنه، وإلى أهله، وكل ما في بيئته، حتى نجومها، كالنجم " سهيل".
- اِغترب الشاعر الفاتح غربة نفسية ومكانية، فمرّة مأسورًا، وأخرى سقيما، وتارة أخرى مسجونًا وهو في كل هذه الحالات، خرج مجاهدًا بعيدا عن دياره، لذا وجدناه يئن ويتألم تحت وطأة هذا الاغتراب المكاني الذي سبّب له غربة نفسية حادة، فانكسرت نفسيته، وتعب وانطوى، وانقسمت نفسه بين الإلحاح على النصر والتوْق إلى الشهادة، وبين وشائج وأواصر الرابطة الأسرية، فمرضت نفسه.

- وما ينبغي الإشارة إليه – ونحن نجمع ثمار هذه المذكرة – مساهمة الصحابة رضوان الله عليهم والقادة المجاهدين البواسل في إذكاء جذوة الجهاد، في نفوس المجاهدين، فصنعوا ملحمة خالدة للأمة الإسلامية، صفحات مشرقة مضيئة في موسوعة التاريخ الإسلامي، كعبد الله بن رواحة الصحابي الجليل، والقائد العظيم خالد بن الوليد وغيرهما، وقد غرس النبي $ بذرة الجهاد قبل وفاته فأينعت وأنجبت ثمارًا، هي عظماء هذه الأمة الذين قادوا هذه الحروب والغزوات، وضربوا في الأرض فاتحين غانمين.
- البيئة الجديدة المفتوحة بمظاهرها الطبيعية وغير الطبيعية، حركت قريحة الشاعر الفاتح، وشدّت اِنتباهه، فراح يجرّد قلمه، واصفا كل ما وقعت عليه عَينه من قصور فخمة – لا عهد له بها – وكنائس ونقوش، وبرد وثلج ورياض جميلة... الخ.
- والجديد حقا في هذه الفتوحات هو إحضار الفرس للفِيَلة وجعلها على جبهات القتال، هذه الفيلة التي لم يألفها العربي ففزع منها، وأرهبته وخيوله، فوصفها الشاعر الفاتح ودقّق في وصفها ووصف الشجعان الذين واجهوها، كالقعقاع بن عمرو الذي فقأ عيونها وقطع مشافرها، فمجدّه عمرو بن العاص في شعره.
- تميزت أبيات المقطوعات أو القصائد بالوحدة العضوية فكل بيت يسلمنا للّذي يليه في استرسال وانسجام وترسل، داخل حبكة فنية محكمة، وجاء بعضها في نمط قصصي جذاب وممتع كقصيدة مالك بن الريّب، وضرار بن الأزور وغيرها.

- لغة الوصف وتشخيص المواقف، كانت بسيطة وبارعة، نقلت كل ما جال في خواطر الشعراء الفاتحين وتميزت ببراعة التصوير، ودقة التشخيص رغم بساطتها، إلا أنها موصلة للأفكار، فكأنك تشاهد المواقع والحروب وتقرأ نفسيات الأبطال والأعداء رغم عدم تركيزه على الخيال لظروفه القتالية الصعبة.
- أما عن القالب الشعري الذي صبّ فيه الشاعر فحوى ما في جعبته، فتنوع بين القصيد والرجز، فإن كان في مجال الحماسة، ودفع الهمَم ورفع المعنويات سهّل تعبيره وارتجز، وإن كان ذا نفس طويل أسيرًا أو يصارع المرض نظم القصيد.

وفي الأخير، ندعو بالتوفيق لكل من يسعى في طلب العلم.

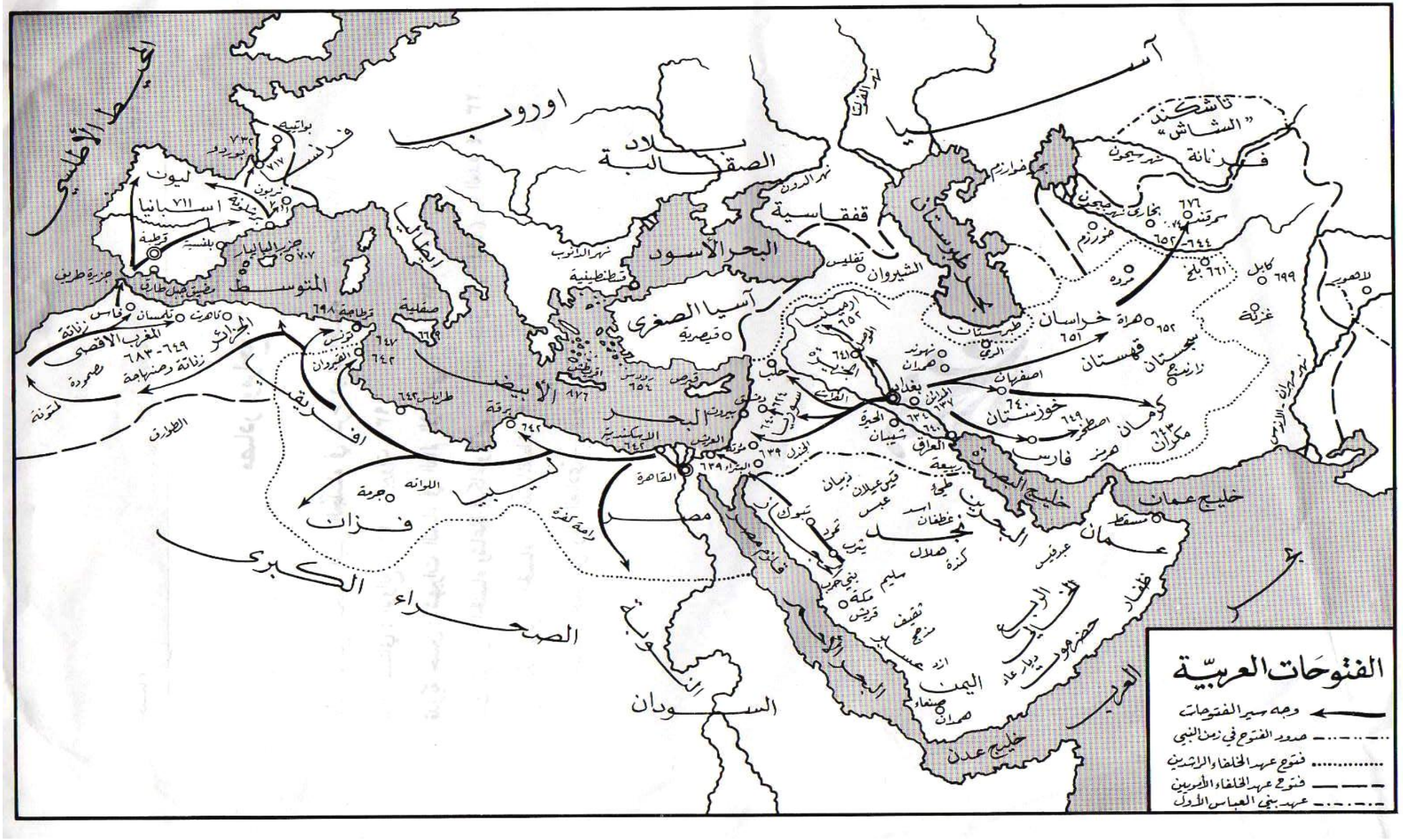

خريطة للفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام

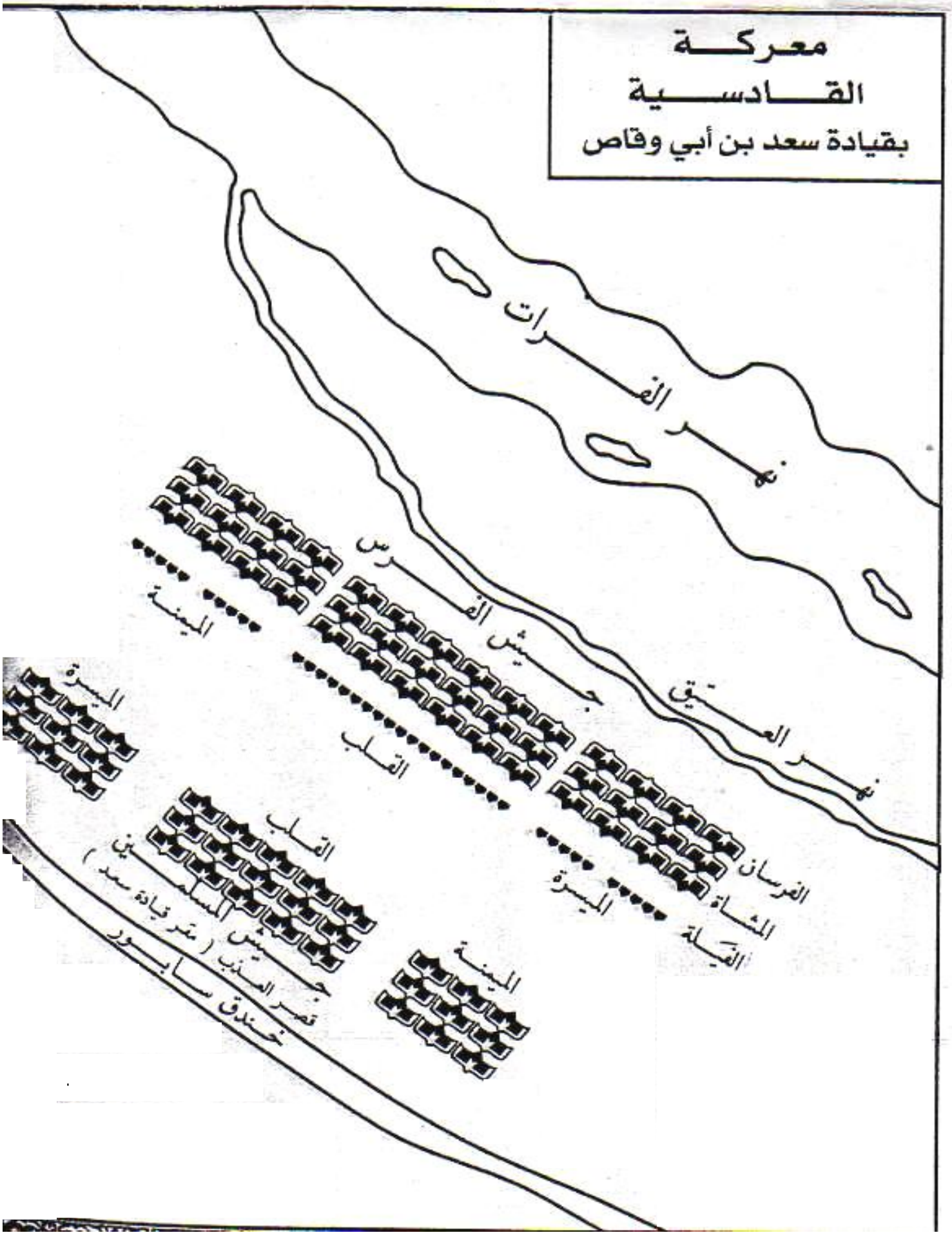

نموذج للمعارك أثناء الفتوحات الإسلامية
" معركة القادسية"

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة

1) ابن الأثير، ضياء الدين. المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر. تقديم وتحقيق أحمد حرفي، بدوي طبانة. ط2. دار الرفاعي، الرياض، 1983.

2) إبراهيم، عبد الرحمن خليل. دور الشعر في معركة الدعوة الإسلامية أيام الرسول. الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر.1971 م.

3) أبو ذياب، خليل. أدب صدر الإسلام. الأردن، عمان،: دار عمار للنشر.

4) إسماعيل، عز الدين. التفسير النفسي للأدب. القاهرة: دار المعارف، 1963 م

5) الأصفهاني، أبو الفرج. الأغاني. مصر: مطبعة التقدم، نشرة الساسي.

6) ابن آعثم، أبو محمد أحمد الكوفي. الفتوح. ج 1.بيروت، لبنان،: دار الندوة الجديدة.

7) أمين ، أحمد.فجر الإسلام.ط 10. بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، 1969.

8) أنيس، إبراهيم. موسيقى الشعر. مكتبة الأنجلو مصرية. ط3. 1965.

9) بدوي، عبده. دراسات في النص الشعري (عصر صدر الإسلام وبني أمية) دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة. 2000.

10) البستاني، سليمان. مقدمة الإلياذة. ط5. دار المشرق بيروت. لبنان.1983.

11) البطل، علي . الصورة الفنية في الشعر العربي حتى آخر القرن الثاني هجري. دراسة أصولها وتطورها. دار الأندلس للطباعة والنشر.1981.

12) البغدادي، عبد القادر، بن عمر. خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب. تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون. مكتبة الخانجي . القاهرة.

13) البكري، توفيق. أراجيز العرب. ط2. 1346 هـ.

14) البلاذري، أبو بكر. فتوح البلدان. ليدن. نشرة ذي غويه، 1866 م.

15) بلاشير، رجيس. تاريخ الأدب العربي. ج 1، تونس: المؤسسة الوطنية للكتاب، الدار التونسية للنشر.

16) تبرماسين، عبد الرحمان. البنية الإيقاعية للقصيدة المعاصرة في الجزائر. ط1. دار الفخر . القاهرة.2003.

17) التطاوي، عبد الله. أشكال الصراع في القصيدة العربية في عصر صدر الإسلام. ج2. مصر: مكتبة الانجلو المصرية.

18) الجاحظ، عمرو بن بحر. الحيوان. ج7. ط4. تحقيق الأستاذ عبد السلام، هارون الحلبي، 1945.

19) الجاحظ، عمرو بن بحر. البيان والتبيين. ج1. ط4. تحقيق عبد السلام محمد هارون، لبنان، بيروت: مكتبة الهلال، 1988.

20) الجبوري، يحي. الإسلام والشعر. مكتبة النهضة. بغداد. 1964.

21) الجرجاني، عبد القاهر. دلائل الإعجاز. تعليق محمود محمد شاكر. ط2. القاهرة: مكتبة الخانجي. 1989.

22) الجرجاني، القاضي علي بن عبد العزيز. الوساطة بين المتنبي وخصومه. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي. المكتبة العصرية. بيروت . لبنان. 1966.

23) جلوي، جون، بابوجوت. الفتوحات العربية الكبرى. تعريب وتعليق خيري حماد. فرع الساحل: الدار القومية للطباعة والنشر.

24) الجمحي، محمد ، بن سلام . طبقات فحول الشعراء . نشرة جوزيف هل، ليدن – بريل. 1913-1916.

25) الحاوي، ايليا. في النقد والأدب. ط5. دار الكتاب اللبناني. بيروت.

26) حسان، تمام. اللغة العربية معناها ومبناها. الهيئة المصرية العامة للكتاب. 1979.

27) حسن، ابراهيم، حسن. فتح مصر في التاريخ السياسي. ج1، القاهرة: مطبعة المعارف، 1926.

28) حسين ، عبد القادر . فن البلاغة . دار نهضة مصر للطبع و النشر . الفجالة . القاهرة . 1393-1973.

29) الحسين، قصي. موسوعة الحضارة العربية – العصر الإسلامي – . بيروت: دار البحار.

30) الحموي، ياقوت. معجم البلدان. ج 2، ج4. طبعة ليزج 1899 م.

31) حميد، متولي بدير. ميزان الشعر. دار المعرفة. القاهرة. 1370-1960.

32) الخضري بك، محمد. تاريخ الأمم الإسلامية – الدولة الأموية – .ط 2. اعتنى به الدكتور درويش جويدي، بيروت، صيدا: المكتبة العصرية، 2001.

33) الخفاجي، عبد المنعم. الحياة الأدبية في عصر صدر الإسلام. ط 3. لبنان، بيروت: دار الكتاب اللبناني، 1984.

34) الخفاجي، ابن سنان. ستر الفصاحة . تحقيق علي فودة . ط1. مكتبة الخانجي . القاهرة . 1350-1932.

35) دحلان، أحمد، زيني. الفتوحات الإسلامية بعد مضي الفتوحات النبوية. ج 1. لبنان، بيروت: دار صادر.

36) الدسوقي، عمر/ الفتوة عند العرب. مصر، الفجالة: مكتبة نهضة مصر.

37) دي لويس. سيسيل. الصورة الشعرية. ترجمة أحمد ناصيف الجياني وآخرين. دار الرشيد. بغداد 1982.

38) الرباعي، عبد القادر. الصورة الفنية في شعر أبي تمام. المؤسسة العربية. بيروت. 1999.

39) ابن ر شيق، أبو علي الحسن، بن علي القيرواني: العمدة في صناعة الشعر ونقده. بتصحيح محمد بدر الدين النعساني، ج 1، القاهرة: مطبعة السعادة، 1325 هـ - 1907 م.

40) أبو الرضا، سعد أبو الرضا، محمد: نحو منهج نفسي في نقد الشعر. مصر: الهيئة المصرية للكتاب، 1984.

41) الرماني، أبو الحسن، علي بن عيسى. معاني الحروف. تحقيق د. عبد الفتاح الشلبي . دار النهضة للطبع والنشر. القاهرة. مصر.

42) رومية، وهب. شعرنا القديم والنقد الجديد. المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب. الكويت. (مارس 1996).

43) الزمخشري، أبو القاسم محمود بن عمر. الكشاف. ج2. الحلبي. القاهرة. 1938.

44) الزيات، أحمد، حسن.تاريخ الأدب العربي. لبنان، بيروت: دار المعرفة.

45) زيدان، جرجي. تاريخ آداب اللغة العربية. المجلد 1. لبنان، بيروت: دار مكتبة الحياة، 1983 م.

46) زيدان، جرجي.تاريخ التمدن الإسلامي .لبنان، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة.

47) ساعي، بسام. حركة الشعر الحديث في سوريا من خلال أعلامه. ط1. دار المأمون للتراث. دمشق. سوريا 1398- 1978.

48) السرطاوي، معادا. دراسات في الأدب العربي، الأردن. عمان: دار الجدلاوي للنشر والتوزيع.

49) السعدني، مصطفى. البنيات الأسلوبية في لغة الشعر العربي. منشأة المعارف بالاسكندرية.

50) السكري، أبو سعيد الحسن بن الحسين. ج1. حققه عبد الستار أحمد فراج. راجعه محمود محمد شاكر. مكتبة دار العربية. القاهرة.

51) ابن سلامة، الربعي . محاضرات في القصيدة العربية . منشورات جامعة منتوري . قسنطينة 2002-2003.

52) أبو سنة، محمد إبراهيم. قصائد لا تموت. دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع. القاهرة.

53) السيوطي، عبد الرحمان جلال الدين. المزهر في علوم اللغة وأنواعها. شرحه و ضبطه محمد أحمد جاد المولى بك. علي محمد البجاوي محمد أبو الفضل إبراهيم. منشورات المكتبة العصرية. بيروت. لبنان.

54) الشايب، أحمد. الأسلوب – دراسة تحليلية لأصول الأساليب الأدبية – .ط 6. القاهرة: مكتبة النهضة المصرية لأصحابها حسن محمد وأولاده.

55) شرارة، عبد اللطيف. المتنبي، أبو الطيب. الشركة العالمية للكتاب.مكتبة الدار الإفريقية العربية.

56) الشرقاوي، عبد الرحمن. شخصيات إسلامية – أئمة الفقه التسعة .– ط 2. لبنان، بيروت: دار اِقرأ، 1985.

57) شكري، عياد. موسيقى الشعر. ط1. دار المعرفة. القاهرة. 1968.

58) الشوري، مصطفى، عبد الشافي. شعر الرثاء في صدر الإسلام. ط 1. مصر، القاهرة: دار المعارف، 1986.

59) صابر، عبد الدايم. موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور. ط3. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر. 1413- 1993.

60) صلاح، يوسف عبد القادر. في العروض والإيقاع الشعري. دراسة تحليلية تطبيقية. ط1. شركة الأيام. دار الملكية. الجزائر 1996.

61) الضبي، بن محمد، بن يعلي، المفضل . المفضليات. تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر، عبد السلام محمد هارون، ط 8. مصر، القاهرة: دار المعارف، 1993.

62) ضيف شوقي، فصول في الشعر ونقده. ط2. دار المعارف. القاهرة. د.ت.

63) ضيف شوقي، في النقد الأدبي. ط6. دار المعارف. القاهرة. د.ت.

64) ضيف، شوقي. التطور والتجديد في الشعر الأموي. ط9. مصر، القاهرة: دار المعارف،1963.

65) ضيف الله، محمد الأخضر. محاضرات في الحضارة العربية. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1982.

66) طبانة، بدوي. دراسات في نقد الأدب العربي. ط 5. مصر، القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية.

67) الطرابشي، مطاع. الشعر. دمشق: مطبوعات جمع اللغة العربية، 1974.

68) ابن عبد الحكم، عبد الرحمن، بن عبد الله، أبو القاسم. فتوح مصر وافريقيا. نشرة سال ثوري. ليدن وبريل، 1930.

69) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير. تاريخ الأمم والملوك. ج 4، ج 5. مصر: المطبعة الحسينية.

70) الطبري، أبو جعفر، محمد بن جرير. تاريخ الطبري. ج 5. لبنان، بيروت: دار الكتب العلمية، 1995.

71) طنوس، وهيب. الوطن في الشعر العربي. مديرية المكتب والمطبوعات.1979.

72) عروات، أحمد، فلاق. تطور شعر الطبيعة بين الجاهلية والإسلام. الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

73) العسقلاني، ابن حجر. الإصابة في تمييز الصحابة. ج 2 ، ج 3، ج 4. مصر، القاهرة: المطبعة الشرقية، 1325هـ.

74) العسكري، أبو هلال. الصناعتين. ط1. تحقيق محمد أبو الفضل وعلي البجاوي، عيسى الحلبي. القاهرة. 1952.

75) العشماوي، محمد زكي. فلسفة الجمال في الفكر المعاصر. لبنان، بيروت، 1980.

76) عصفور، جابر. الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي عند العرب. المركز الثقافي العربي. بيروت. لبنان.

77) علام، علي، أحمد. شعراء فرسان تحت راية الإسلام – تاريخ وظواهر فنية – ط 1. مصر، الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر، 2001.

78) عبد، رجاء. التجديد الموسيقي في الشعر العربي. دراسة تأصيلية بين القديم والجديد لموسيقى الشعر العربي. منشأة المعارف الإسكندرية. ج.م.ع.

79) غطاشة، داود وحسين راضي. قضايا الند لعربي. قديمها وحديثها. مكتبة دار الثقافة للنشر والتوزيع. عمان. الأردن.

80) الفاخوري، حنا. الجامع في تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم – لبنان، بيروت: دار الجيل.

81) فاخوري، محمود. موسيقى الشعر العربي، مظاهرها وجوانب التجديد فيها. منشورات جامعة حلب. مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية. 1450- 1994.

82) فروخ، عمر. تاريخ الأدب العربي – الأدب القديم من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية.

ط 5. لبنان، بيروت: دار العلم للملايين 1984.

83) فهمي، ماهر حسن. قضايا في الأدب والنقد. قطر، الدوحة: نشر وتوزيع دار الثقافة، 1986 م.

84) فيصل، شكري. حركة الفتح الإسلامي في ق 1 هـ . لبنان، بيروت: دار العلم للملايين.

85) فيصل، شكري. المجتمعات الإسلامية في القرن الأول. لبنان، بيروت: دار العلم للملايين.

86) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم. الشعر والشعراء. دار المعارف .القاهرة. مصر.

87) قدامة، بن جعفر. نقد الشعر. تحقيق كمال مصطفى الخانجي. 1963.

88) قصاب، وليد. قضية عمود الشعر في النقد العربي القديم. ظهورها وتطورها. ط1. دار الثقافة. الدوحة. قطر. 1412- 1992.

89) قصاب، وليد. شخصيات إسلامية في الأدب والنقد . ط1. دار الثقافة. الدوحة. قطر. 1412- 1992.

90) القاضي، النعمان، عبد المتعال. شعر الفتوح الإسلامية في صدر الإسلام. القاهرة: الدار القومية للطباعة والنشر.

91) القالي، أبو علي، اسماعيل بن القاسم. الأمالي. ج 1. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصرية، 1926 م – 1344 هـ.

92) القرشي، أبو زيد، محمد، بن أبي طالب. جمهرة أشعار العرب. لبنان، بيروت: دار بيروت للطباعة والنشر، 1980م.

93) القرطبي، ابن عبد الله، يوسف. الإستيعاب في معرفة الأصحاب. طبعة حيدر آباد، 1318 هـ.

94) القرطاجني، أبو الحسن حازم. منهاج البلغاء وسراج الأدباء. تقديم وتحقيق محمد الحبيب بن الخوجة. دار الكتب الشرقية. تونس. 1996.

95) قطب، السيد. النقد الأدبي. أصوله ومناهجه. دار الشروق.

96) القصيبي، غازي. قصائد أعجبتني. ط 3. الرياض: دار ثقيف 1992.

97) ابن كثير، عماد الدين، أبي الفداء إسماعيل. البداية والنهاية. ج 4، ط 6. لبنان، بيروت: مكتبة المعارف، 1985.

98) كمال، أحمد، عادل. الطريق إلى المدائن. لبنان، بيروت: دار النفائس.

99) كمال، أحمد، عادل. القادسية. لبنان، بيروت: دار النفائس.

100) كمال، أحمد، عادل. سقوط المدائن. لبنان، بيروت: دار النفائس.

101) مجذوب، عبد الله الطيب. المرشد في فهم أشعار العرب وصناعتها. ج1. شركة الطبع والنشر لأسرة الحلبي. مصر.

102) المسعودي، أبو الحسن. مروج الذهب ومعادن الجوهر. ج2. مطبعة الشرق الإسلامية. القاهرة.

103) مصطفاي، موهوب. المثالية في الشعر العربي. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1982.

104) معروف، نايف. الأدب الإسلامي في عهد النبوة وخلافة الراشدين. ط 1. دار النفائس، 1990.

105) موافي، عثمان. دراسات في النقد العربي. دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر. الإسكندرية. مصر. 2004.

106) نافع، عبد الفتاح صالح. عضوية الموسيقى في النص الشعري. ط1. مكتبة المنار. الأردن 1985.

107) النويهي، محمد. الشعر الجاهلي. منهج في دراسته وتقويمه. ج1. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة.

108) ابن هشام، أبي محمد، عبد الملك. السيرة النبوية. ج 4. تحقيق محمد فهمي السرجاني. مصر، القاهرة: دار الفكر العربي، 1973.

109) هلال، غنيمي. النقد الأدبي. أصوله ومناهجه. دار الشروق.

110) هني، عبد القادر. نظرية الإبداع في النقد العربي القديم. ديوان المطبوعات الجامعية. الجزائر. 1999.

111) الواقدي، أبو عبد الله، محمد بن عمر. فتوح الشام. لبنان، بيروت: دار الجيل.

112) يونس، علي. نظرة جديدة في موسيقى الشعر العربي. الهيئة المصرية العامة للكتاب. مصر . 1993.

دواوين الشعراء:

- ديوان أبي محجن الثقفي. صنعة أبي هلال الحسن بن عبد الله العسكري. نشره وقدم له. د. صلاح الدين المنجد. دار الكتاب الجديد. لبنان.
- ديوان حسان بن ثابت. بقلم محمد إبراهيم جمعة. دار المعارف بمصر. 1965.
- ديوان الخنساء. شرحه وضبطه وقدم له الدكتور عمر الفاروق الطبّاع. شركة دار الأرقم بن أبي الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع. بيروت. لبنان.
- ديوان الزهاوي، جميل صدقي. المطبعة العربية. القاهرة 1343هـ.1924م
- ديوان عمرو بن معد يكرب الزبيدي. جمعه وحققه مطاع الطرابيشي. مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق. 1974.
- ديوان الهذليين. نسخة مصورة عن طبعة دار الكتب. الدار القومية للطباعة والنشر. القاهرة. 1965.

الدوريات والخرائط:

- مجلة عالم الفكر. مجلد 27. ع1. يوليو- سبتمبر 1998.

تصدر عن المجلس الوطني الثقافي و الفنون والآداب. الكويت.

- خريطة للفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام.
- نموذج للمعارك أثناء الفتوحات الإسلامية "معركة القادسية".

المعاجم:

- الفيروز آبادي (مجد الدين محمد بن يعقوب). القاموس المحيط. ضبط وتوثيق. يوسف الشيخ محمد البقاعي. دار الفكر للطباعة و النشر والتوزيع. بيروت. لبنان 1420- 1999.
- ابن منظور، (أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم) لسان العرب. ج15. ط1. دار صادر. بيروت. لبنان. 1997.

الفهرس

المقدمة

المدخل

– لمحة عن الحياة السياسية في صدر الإسلام.....ص1
– لمحة عن الحياة الإجتماعية في صدر الإسلام.....ص4

الفصل الأول:

أ–لمحة عن الحياة الأدبية في صدر الإسلام و خلال الفتوحات الإسلامية.....ص7

1– أغراض الشعر في صدر الإسلام و خلال الفتوحات الإسلامية.....ص11
2– خصائص الشعر في صدر الإسلام و خلال الفتوحات الإسلامية.....ص12
ب– لمحة تاريخية عن حركة الفتوحات الإسلامية في صدر الإسلام.
1– أسباب الفتوحات و عواملها.....ص15
2– مفهوم الجهاد في الإسلام وآيات قرآنية تحض عليه.....ص19
3– غزوات الرسول صلى الله عليه و سلم و أولى فتوحاته.....ص23
4– فتوحات الشام.....ص24
5– فتوحات العراق.....ص27
6– فتوحات مصر.....ص31
7– فتوحات المغرب و إفريقيا.....ص33

الفصل الثاني:

1-الفتوحات الإسلامية والشعر.....ص36

-الحض على الجهاد التهافت عليه و التنافس على الاستشهاد.....ص37

2-الفتوحات الإسلامية و الشعراء.....ص62

-رثاء الأعضاء المقطوعة.....ص63

-بكاء الأهل و الأبناء المجاهدين المغتربين.....ص69

-رثاء الشهداء.....ص75

الفصل الثالث:

أ-الأثر النفسي للفتوحات الإسلامية في الشعر.

1-علاقة الأدب بعلم النفس ص82

2- الشعور بالغربة و أثره في الشعر ص83

3- الحنين إلى الوطن و الأهل و أثره في الشعر.....ص120

4- مظاهر البيئة الجديدة و أثرها في الشعر.....ص130

الفصل الرابع:

1-الخصائص الفنية لشعر الفتوحات الإسلامية

توطئة.....ص142

-اللغة و الأسلوب.....ص144

-الصور و الأخيلة.....ص153

-الأوزان والقوافي.....ص165

الخاتمة ص192

ملحق.....ص197

-خريطة لحركة الفتوحات الإسلامية.....ص198

- نموذج للمعارك الإسلامية أثناء الفتوحات الإسلامية معركة القادسية.....ص199

-قائمة المصادر و المراجع.....ص200

RESUME D'UNE THESE DE MAGISTERE

Le sujet de ce mémoire est une étude psychologique de la poésie des conquêtes islamiques, au début de l'islam .ce sujet revêt une grande importance pour la connaissance du poète musulman engagé, qui a confondu l'épée et la plume , ainsi que les poésies récitées par les conquérants.

Cette période du début de l'islam est considérée comme la plus fructueuse dans la divulgation de l'islam, la défense de cette cause et sa volonté de l'étendre.Rien n'étonne si cette conquête est accompagnée d'un cœur plein de foi, d'une expression poétique et d'une mémoire fructueuse.

La poésie des conquêtes islamiques au début de l'islam avait un rôle actif durant cette période ainsi qu'elle faisait connaître les combattants, leurs nobles batailles, leurs guerres et leurs comportements.

Dans l'étude, le modèle psychologique a été suivi pour faire ressortir les talents des poètes conquérants musulmans au début de l'islam, comme j'ai aussi fait appel au modèle social en établissant le lieu entre son environnement original et nouveau, ainsi que le modèle technique en étudiant ces poésies du point de vue des termes, du sens, du style, d'imagination, des cadences, et des rimes.

En ce qui concerne la structure organisationnelle de l'étude, elle comporte une introduction , une entrée , quatre chapitres et une conclusion .Dans l'introduction le sujet a été défini ainsi que les modèles utilisés pour la qualification de ce poète et l 'étude de ses poésies et récitations.

L'introduction a porté sur la vie politique au début de l'islam, de la naissance du prophète (Prière et paix sur lui).Et à l'ère du khalifat. Par la suite, un aperçu sur la vie sociale au début de l'islam à été présenté, où se sont instaurés les valeurs et les principes islamiques nobles, s'est répandue la bonne éducation des gens qui ont reconnu leurs droits et devoirs. L'islam à combattu les futilités, les hypocrites, les mécréants et les juifs qui le menacèrent.

Dans le premier chapitre, j'ai cité un aperçu sur la vie littéraire, récits et poésie au début de l'islam et au cours des conquêtes islamiques, et son rôle pour encourager les volontés et le soulèvement des ardeurs ainsi que l'avis du prophète (Prière et paix sur lui). Et de ses compagnons sur la poésie.

Par la suite, j'ai relaté le poème de la glorieuse conquête ainsi que les objectifs des poésies anciennes et nouvelles qui se sont faits connaître au début de l'islam et au cours des conquêtes islamiques.

Comme j'ai étayé un aperçu historique des conquêtes islamiques et leur importance dans la libération des peuples colonisés dans les anciennes monarchies, et leur délivrance de la diminution, le mépris et l'injustice, ainsi que la propagation de l'islam et ses préceptes dans les pays conquis pour étendre l'état islamique.

Les causes de ces conquêtes ont été détaillées et les facteurs qui y ont contribué ont été analysés, pour terminer le chapitre par la notion de sacrifice et les versets

coraniques qui y font référence ainsi que les grandes étapes, telle que la conquête de la Syrie De l'Iraq, de l'égypt. Et du Maghreb Arabe.

Dans le deuxième Chapitre, l'influence des conquêtes islamiques sur la poésie, a été mise en évidence. Ce sont elles qui ont ravivé le flambeau de la poésie ainsi qu'elles ont amené les combattants à affluer à la recherche du sacrifice et à y chercher la compétition au nom de dieu pour gagner le paradis.

D'autre, ailleurs, encourageaient orgueilleusement, ce qui incitait au sacrifice .les uns criaient la joie de la victoire, les autres attristés dans leur âme les parents qui se sont séparés de leur enfants partis au sacrifice pleurent sans cesse leurs enfants et leurs proches, avec une grande émotion.

Les Compagnons du prophète, également ont récité des vers de poème incitant les gens au sacrifice , remontant le moral vers des combattants conquérants , tels que, ABDOUALAH BEN-RAOUAHA.KHALED BEN EL OUALID ainsi que les otages et les prisonniers qui ont exprimé leur désarroi sur leur situation et la privation de leur liberté.

Dans le troisième chapitre, j'ai présenté l'influence psychologique de ces conquêtes islamiques sur la poésie arabe au début de l'islam et j'ai insisté sur les nouvelles notions qu 'elles ont engendrées, tels que, l'affection envers les proches, et les amis, et le sentiment de nostalgie dans cette nouvelle terre Conquise qui leur est étrange.

Le poète a décrit son voyage, tantôt émerveillé, tantôt mécontent .Tout cela a été inscrit dans leurs poèmes et l'histoire glorieuse de l'islam a été notifiée.

Le quatrième et dernier chapitre a embrassé les outils, moyens d'expression et les modèles dans lesquels le poète a façonné ses expériences poétiques ainsi que ses attitudes.

Son expression et son style ont été analysés de même que son imagination et sa vision en terminant par les airs et les cadences. Il a été insisté sur la mise en évidence de la cohésion entre le comportement psychologique et la «musique» poétique.

En conclusion, J'ai cité les Résultats et les compléments qui paraissaient nouveaux, les remarques qui ont attiré mon attention au cours de l'étude, les recommandations qui me paraissaient nécessaires pour compléter d'autres volets de ce sujet

En fin, je remercie mon professeur l'encadreur **RABAI Benselama** pour les efforts et le sérieux et ses recommandations précieuses, et sans lui cette modeste thèse ne vira jamais la lumière. Que dieu le bénisse et le protège.

The subject of this memorandum is a psychological study of the first Islamic conquests poetry, This is why it has a great importance in making, The Muslim poet fighter known, this latter who has been able to join the sword to the pen. All the poetry that was said during this period has made it one of the most fertile periods in spreading, Islam and fighting for it, not only with the sword as well. It is an evidence that this poet fighter had a great heart full of faith, a creative memory and a poetric tongue.

Besides, the poetry of this era ha d an effective role in the history, in the audacious battles and in the attitude of the Muslim fighters.

- In the study I have applied a psychological approached to analyse the piety said by the poets of this periods, a sociological approach to make the conqueror link his original environment with the new one , and an artistic approach to study all the linguistic aspect of poetry in terms of style, vocabulary , meaning and rime.

- As far as the organizational structure of this study is concerned, It is composed of an introduction, an entrance, four chapters and a conclusion.

- In the introduction, I have introduced the subject as well as the techniques used to qualify the poet and the study of his verses. The entrance has included the political life of the first Islamic conquest since the birth of the prophet (prayer and peace be up on him), till the Khalifa's era then a quick look on the social life this era where the moral values of Islam have spread and people have gained their rights and duties, Islam fought trifles the hypocrites, unbelievers and the Jews who threatened it.

- In the first chapter I have given a glance on the artistic life during the Islamic conquest including both poetry and prose and prose and their effective role in motivating peoples 'wills as well as the prophet's and khalifa's opinion upon poetry.

- Later on, the poem of the glorious conquest has been introduced within its ancient and new objectives and in addition to all that has been said above I have also dealt with a historical overview of the Islamic conquests and their importance in the liberation of the colonized people in the ancient monarchies. And their delivery from domination, contempt and injustice as well the propagation of Islam an its precepts in the conquered countries in order to stretch the Islamic state.

- The causes of these conquests have been detailed and the factors that have contributed to that, have been analyzed, to finish the chapter with a notion of sacrifice and the coranic verses that refer to and even the great steps such as the conquest of Syria , Iraq , Egypt , and the Arabic Maghreb.

- In the second chapter , the influence of the Islamic conquest on poetry has been put in evidence , these letters have revived the sorch of poetry which led the fighters to flow in research of

sacrifice and competition in the name of ALLAH to gain paradise , others encouraged proudly those who incited to sacrifice , some shouted the victory joy , others felt sad in their souls. The parents who were separated from their children gone to sacrifice, cried continuously their sons and their relatives with a big emotion.

- The prophet's companions have also recited verses of poetry inciting people to sacrifice, raising the fighters' moral such as ABDULAH BEN RAWAHA, KHALED IBEN EL WALID, and even the hostages , and the prisoners who have expressed their confusion about their situation and the privation of their freedom.

- In the third chapter, I have treated the psychological influence of these Islamic conquests upon the Arabic poetry in the beginning of Islam, and I have insisted on the new creation that they have begot such as affection to wards relatives, friend, and children, and home sickness in the new conquered land which was strange to them.

- The poet who has described his trip, one time was amazed, and another time as unhappy. All this has been prescribed in their poems and the glorious history of Islam has been notified.

- In the fourth and last chapter, the tools, the means of expression, and the patterns in which the poet has figured his poetric experiences.

The analysis of his expression as well as his style have been analyzed within his imagination and his vision to end up with his tunes, and his cadences.

- It has been insisted on putting in evidence the cohesion between the psychological behaviors, and the poetic rhythm.

- In conclusion, I have mentioned the results that seemed new, and the remarks that have attracted my intention during this study , the recommendations , which seemed to me necessary to complete other chapters of these subjects.

Finally, I would express a deep sense of gratitude to my professor frame-maker Rabai Benslama for his efforts, intelligent , comments , creative criticisms , and his invaluable suggestion. This thesis would have been impossible to be achieved without his support may God bless him, and protect him.